حمود حمد الشكيلي

صرخة واحدة لا تكفي



رواية

مؤسسة الانتشار العربي

حمود حمد الشكيلي

صرخة واحدة لا تكفي

رواية



صرخة واحدة لا تكفي

رواية

حمود حمد الشكيلي



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-540-4
الطبعة الأولى 2014

خُلِقت هذه الحياة النَّصِّية في أمكنة متفرقة بين عُمانٍ وتايلاند، وجُمِّلت في أمكنة أخرى بين دبي وكلاردشت، لذا كل شخصياتها وعوالمها متخيلة من الواقع.

إلى أحمد أينما كان..

(1)

إطارات السيارة تقبّل أزقّة الأحياء السكنيّة، إيقاع جرس يطلقه السائق لحظة مروره جنب أبواب الحديد الخضراء المطلة على الشوارع الضيّقة. السيارة البرتقالية في سيرها تبدو كسلحفاة يقطر الماء من جلدها في نقل خطواتها من فرط برد الصباح.

رن الهاتف، رُفعت السماعة.

عجز الراوي عن معرفة المتصل، لكنه يرى السائق فرحًا بالمكالمة التي انتهت قبل ثوان بسيطة.

زادت حركة السيارة، يتوجه السائق إلى حيٍّ سكني عامر بالبيوت الجديدة. بيوت هذا الحي أكثر جمالًا من البيوت التي زمّر فيها السائق.

يمرّ أمام بيت سكنيٍّ ذي طابقين، زُيِّنت واجهته المطلة على الشارع بأحجار عربية صنعت في أسبانيا، وأمام مدخله الرئيس أشجار زينةٍ وظلٍّ، يحيط بها سُورٌ حديدي.

خادمة المنزل تقف أمام الأشجار، عودُ شجرة في يدها، تكتب على إحدى قطع الشبك الحديدي كلمات لا

تظهر لمن يمر عليها داخل سيارة، الكلمات التي خطّتها كما لو أنها كلمات خطّها مشعوذ، أو دجال لمريض أُوْهِمَ أن جنّيًا يشاطر حياته البائسة.

الخادمة تلتفت يمنة ويسرة، عيناها على الكلمات كعيني حارس مؤتمن على شيء غال وثمين.

وصل إلى بيت جديد، من بعيد كأنه بيت، عندما تقترب منه تلحظ أنه بيتان. إن تعودت تسمية الأشياء بأسمائها فستقول إن هذا البيت الذي بعد دوار المنطقة الثانية شقتان أو فلتان صغيرتان.

أمام البيت امرأة عجوز تنتظر، تظهر بقلقها كما لو أنها تنتظر أحدًا مهمًا، أو أحدًا تأخر عليها كثيرًا.

نزل من أمام مقود سيارة برتقالية يعمل فيها سائقًا وبائع إسطوانات غاز، صعد إلى حيث الإسطوانات مقيدة بسلسلة من حديد، هذه السلسلة تشبه السلسلة التي يقيد بها الله الشياطين في رمضان. يمسك الله بهم كي لا يؤذوا أنسه، ولكي لا يتعلل الإنس برؤيتهم في أيام اعتكافهم ليلة القدر. إنه يقيد الإسطوانات؛ كي لا تؤذيه بصوتها المزعج، وكي لا يؤذي بعضها بعضًا، لأنها مليئة بالغاز.

هو يلتقي في نقطة مهمة جدًا مع من يكره الشياطين في رمضان. السلسلة توضح أن الله يبغض أذى الشياطين؛ لذلك يقيدهم بسلسلة حديد، كذلك هو يكره أن تؤذي إسطوانة أختًا لها داخل السيارة.

لكن السلسلة المقيدة لإسطوانات سيارته تظهر كما لو أنها لم تستهلك كثيرًا، يستطيع المرء إن أطال النظر ودقق في فتحاتها المتشابكة أن يعرف المدة التي عمل فيها سائقا وبائعًا في هذه السيارة.

سحب إسطوانة غاز، سار في الممر الذي تسير فيه المرأة العجوز، دخلت المطبخ من الباب الخلفي، دخل خلفها، أخذ الإسطوانة المنتهية من مكانها، وأسند الإسطوانة المليئة بالغاز حيث أرادتها العجوز، أعطته ريالين ونصف ريال، بيَّن لها أن الإسطوانة بثلاثة ريالات، قالت العجوز «بعيد الشّر، الغاز في البلاد ونواحيها بريالين ونص»، «ماه هنا الحياة غالية، كل شيء نستأجره، أكلنا وشربنا ونومنا، حتى ذي السيارة بو عندي مستأجرنها» قالت العجوز: «من هين أنت ولدي؟ بويشوفك بهذا اللبس كأنك زطي وود عواشير، نافش شعرك كنك جني، وحلاقة لحيتك كما واحد مضروب بعصا في وجه، وما قلت لي مو اسمك أبوي..».

ـ أنا أحمد ود صارخ ماه..

أحمد يضحك كثيرًا، شعرت العجوز أنه راض عن كل كلمة قالتها، حيث لم ينزعج من كلامها. أخذ نصف ريال آخر، أصرّت عليه العجوز أن يشرب قهوة.

دخل المجلس.

دخلت المطبخ.

أخرج حافظة نقوده.

أخرجت فواكه من الثلاجة.

أدخل مبلغ الإسطوانة في حافظة النقود.

أدخلت علبة ماء في الثلاجة.

أخرج هاتفه وتكلم.

أخرجت الدلة من أحد الأدراج وسكبت فيها القهوة.

دخل دورة مياه المجلس.

دخلت مخزن المطبخ.

دلق من فمه «الأفضل»[1] الذي دسّه تحت لسانه.

دلقت ماء إناء فناجين القهوة.

أخذت التمر ودلة القهوة، وصحنًا مليئًا بأنواع مختلفة من الفواكه.

في المجلس سألت العجوز أحمد «من هين من البلادين أنت يا ولدي»؟ «أنا من صوبكم، جيران حنا وياكم ماه، أنا من الوادي وأعرف ولدش»، وما له لسانك أحمر، وضروسك كلها حمرات يا ولدي؟ «عن تكون تدوخ كما أهل مسقط»؟ عيب يا ولدي ترى هذا الشيء عار ونار وغضب من الجبّار». «معلمني ولدش ماه». حاشاه سعيد،

(1) نوع من التبغ غير المحروق.

وعن تتهمه بسوالف الشيطان «من ربيته لين تو عاد عود ومتزوج وما جالي شفته يسوي ذا الشيء قدامي، وكان يسوي من وراي عاد هو وربه يستدوا».

خرج أحمد لسيارته.

خرجت العجوز، تبعته بعينين حزينتين، راح دعاؤها يتقدم سير سيارته، يكاد يرى نظراتها من جانبي المرآتين الزجاجيتين اللتين على جانبي السيارة، سيقتفي الدعاء خطوات قدميه في الدرج المؤدي إلى الشقق التي سيدوسها في هذا اليوم.

راحت السيارة البرتقالية تطرق بالجرس المدينة نحو بيوت تنتظر الغاز، عدَّل أحمد من وضع المرايا الجانبية، يتأمّلُ سحنة وجهه، والحلاقة الجديدة التي تزيّن خديه الأسمرين، يستعيد كلام العجوز، بدا أنه قد صدّق كلامها. خطّ الشعر الصغير الذي في خدِّه لا يشبه خط من ضرب بعصا في وجهه، الضرب بالعصا يترك خطًا أحمر، وهنا الخط ليس أحمر، لكن ليش تقول «زطي وود عواشير»؟ صمت قليلًا، بعدها فتح النافذة، بصق بصقة كاد يسمع صوتها لحظة أن وضعت بصمتها اللزجة في وجه الشارع أثناء دخوله من بعد الدوار، ثم قال: «أوه هل البلادين روّ، وشوان، عمانيين مال أول لاه، مال سعيد بن تيمور وحبابوته، يغيبوا، خلك، خلك، خلك منهم، عجوز مخرفة، جاية مسقط تقس عليّ أنا..».

(2)

تغص المدينة بالبشر المتوكئين على أقدامهم، وبآخرين يمتطون كراسي سيارتهم. لغط، هرج ومرج يلتقيان أمام المجمّع التجاري، وافدون عرب، وآخرون من دول غير عربية، عمانيون ينتظرون مأكولات تركية وهندية وعربية.

من فوق إحدى شرفات بنايات الخوير تظهر سيارات الغاز كحبات برتقال في أغصان شجرة، تتوزع الأغصان الخضراء من رأس شجرة البرتقال مثلما تتوزع السيارات البرتقالية من الخوير إلى أماكن أخرى غير بعيدة عن رأسها.

أحمد غصن من أغصان رأس شجرة الدنيا، ظلاله تمتد في نواحي مسقط، نجده في كل مكان، إن حفظ أحد رقم «بليبه» فما عليه إلا أن يترك له رسالة صوتية. ما أن يقف أمام إحدى كابينات الهواتف العمومية في أي مكان في مسقط حتى يسمع الرسالة الصوتية، ثم يفر كطير غافله صوت مخيف ومفاجىء إلى غصن آخر في شجرة قريبة.

في هذه السنوات ما عاد «البليب» وسيلة اتصال سريعة. تلاشت تقنية «البليب» من أيادي جميع الأحياء، عدا

أحمد ما زال يحتفظ «ببليبه»، إنه مرمي هناك، فوق حافظة السيارة، ترى عينا أحمد «بليبه». وهو من نوع شركة فيلبس، لونه أزرق؛ وبهذا يختلف عن ألوان أجهزة هذه التقنية، أغلب تلك الأجهزة سوداء، عدا لون جهاز أحمد. كلما فتح حافظة سيارته ISUZU ذات الغمارة الواحدة رأى البليب، وكلما رآه تذكر أخاه الذي أعطاه البليب هدية. حدث هذا أيام رسوب أحمد في مواد الصف الأول الثانوي. رسب أحمد في ست مواد من إحدى عشرة مادة يدرسها طلاب الأول الثانوي في المدارس.

لم يكن الجهاز هدية بالمعنى اللغوي للكلمة، إنما هو طلب أراده أحمد فأعطي ما طلب مقابل الاجتهاد والاهتمام بالدراسة. مع بداية الفصل الدراسي الثاني تغيَّر أحمد، قلّل من لامبالاته بالأشياء، وبالحياة في سنوات المراهقة.

كلما أراد أحمد إشعال سيجارة فتح حافظة السيارة، ما أن يفتح الحافظة حتى يرى البليب الأزرق، بعدها بثوان نراه يمسح دمعة عن وجنتيه متذكرًا أخاه الميت، قبل أن تدمع عيناه يأخذ ورقة محارم، وكلما دمعت عيناه أدخل يده في جيبه، وأخرج هاتفه النقال.

الآن بدا أنه أراد أن يشعل سيجارة من سجائره المرمية داخل حافظة السيارة، تلك الحافظة مليئة بـ«واشرات» لأنابيب إسطوانات الغاز، و«سبانة» بها يخلع الأنبوب من رأس إسطوانة الغاز، وثمة هاتف قديم مرمي،

من يره يريد أحمد تبحث عن الولاعة في تلك الأشياء المرمية داخل حافظة السيارة.

وجد أحمد ولاعته، شعر أن سجائره يابسة، مرر إحدى السجائر على فمه، مصها وابتلت ببصاقه، بدا أن فمه جاف من العطش، قبل أن يوقد نار الولاعة في سيجارته سمعته يقول: «أتقول غير وحدة جالسة تمص. . .».

السجائر هي زاد سائقي سيارات الغاز، أغلب هؤلاء البشر لا يملكون هذه السيارات، أكثرهم يعملون سائقين وحمالين في اللحظة ذاتها، لهم مبلغ بسيط من كل إسطوانة غاز بيعت في كل يوم. أحمد وصديقه سعود يأخذان مائتي بيسة من كل إسطوانة غاز باعاها. الراتب لا يكفي شيئًا. ثمانون ريالًا عمانيًا فقط. مع مائتي بيسة من كل إسطوانة غاز بيعت في الشهر الواحد.

الأسوزو البرتقالية تقابل آلة السحب السريع لبنك عُمان المحلِّي، هي أول سيارة تقف بعد محل أحذية خميس، وآخر سيارة في الجهة المقابلة لرواسكو الخوير. الآن الساعة السادسة وأربع دقائق كما في الثواني الإلكترونية داخل ساعة يد أحمد بإطارها البلاستيكي الأسود، العرق الذي يسير في ساعدي أحمد يمرّ على مقبض ساعته، يتخمّر سيرها الأسود، وتصير رائحته عفنة. لم تبرح تلك الساعة معصم يده، لحظة أن يخلعها يرى أنها طبعت صورة إطارها البلاستيكي فوق جلده الأسمر.

قبل دقائق رفع أحمد الكرتون الورقي الطويل الذي ينام فوقه في ليالي الشتاء الباردة، برد مسقط ليس مؤذيًا، يتحمله البشر والحيوانات الأليفة، فهو عكس برد المناطق الداخلية من عُمان.

أخذ من تحت الشر شف الذي وسّده رأسه علبة السجائر، أيقن أن هاتفه مازال في حافظة جيب بنطلونه، وقف أمام باب السيارة، أخرج من خلف كرسي السيارة علبة ماء، غسل أسنانه، رش بعض الماء على وجهه، راحت رؤوس أصابعه تنزل بقايا ما كاد يشبه غفوة نوم متقطّع بعد عناء يوم حافل بتنزيل وتحميل إسطوانة إثر أخرى.

تسير قدماه إلى المقهى، يشتري شايًا، يدخل يده في جيب بنطلونه الأيمن، يسحب سيجارة من العلبة، يدعها في فمه، أصابع يده تغوص في جيب بنطلونه الأيسر، تخرج الولاعة، يشعل سيجارته، يعلقها في فمه كشمعة هلاك لم تتباه بالفرح. أصابعه العشر مشغولات بالسجائر وبكوب الشاي البلاستيكي، مازالت حركة الشارع مشلولة. يترنّح الهدوء في الشارع فيصطدم بالفراغ، ثم تبدأ بعض السيارات بغسل النعاس النائم فوق النوافذ والأبواب.

أخبرتني عينا أحمد أن الساعة الآن السادسة وإحدى عشرة دقيقة.

يصل إلى السيارة، يطفئ محركها، بعد أن أيقن أنها قد تزودت بطاقة حرارية تعينها على العمل طوال هذا اليوم.

زملاء أحمد في العمل تقافزوا من غمائر سياراتهم كحمام طار من أغصان كثيفة الأوراق، وآخرون نزلوا من غرفة لهم داخل شقة مستأجرة في إحدى البنايات القريبة من مركز تجمّع سياراتهم.

أصوات المطربين تعلو من سماعات سيارات محطة الغاز، يشدو المطربون بأصوات عالية، يخرجون من سماعات السيارات كأنهم في سهرة داخل قاعة مغلقة. لكنهم يوقظون أهل الخوير. الخوير سبعة عشر على واحد، وثمانية عشر على واحد يدينون لسائقي تلك السيارات بفضل إيقاظ أبنائهم للمدارس. خادمات المنازل يستيقظن على وقع أغنية تزداد ارتفاعًا من سيارة أحمد في هذه اللحظة «وين أحب الليلة وين، وين أحب وأين أطير، وأين أحب الليلة وين. . . يردد أحمد بصوت عال وأين أطيييييرررررررر».

الهاتف في أذنه، القلم في يده اليمنى، الورقة مفتوحة، وفيها اليوم والتاريخ. يكتب في هذه اللحظة «الخوير 33، سكة 117، البناية 1070، الشقة 9، الطابق 3» ثم أسمعه يقول: «إن شاء الله أخوي، مسافة الطريق وجاي، كلها دقائق بسيطة، وإذا تكرّمت حاول الله يخليك تخرج الإسطوانة المنتهية. . . يغلق أحمد على كلمة أحسنت، مكررًا إياها ثلاث إلى أربع مرات. كان صوته يخفت متلاشيًا بين كل كلمة أحسنت وأخرى.

كلما وصل أحمد إلى دوار مسجد سعيد بن تيمور تذكر قضية تنظيم الإباضية المحظور. يقول وعيناه على الآلات المغروسة في وسط الدوار المشير إلى شارع الكلية التقنية العليا «لن أنسى الضرب الذي ضربنا إياه في شهر خمسة». كان شهر خمسة من عام ألفين وخمسة شهرًا لقمع المتظاهرين، أولئك الذين كذّبوا قصة المسرحية التي مثّلت بعنوان «قلب النظام بقوة السلاح».

أحمد يتحدث الآن ويختفي الراوي، لأن الأخير لم يحضر هذا المشهد، وليس له صلة معرفة بالمسرحية، ولا بمن ألفها، لم يقرأها كنص أدبي، ولم يقرأ ما كتب عنها كمقالات نقدية، بل لم يرها كنص ممسرح على خشبة الخوير. حتى إنه لم يعرف أسماء الشخصيات التي مثّلت المذهب الإباضي، ولا تلك الشخصيات التي مثّلت النظام. حتى اللحظة والراوي يتخيل ما يشعر به أحمد وهو يصل إلى المنطقة التي ضُرِبَ فيها. كأني أراه الآن ورجلي شرطة المهام المستعجلة يركضان خلفه وآخرين من قريته، ومن القرى المجاورة لقريته. يركضان والعصا تصرخ مرتفعة في هواء مسرح زمن الاشتباك، ترتفع حتى تكاد تلامس السحب التي نزلت مخففة على الإباضيين من هول شمس صيف ألفين وخمسة، تنزل العصا بقوة على الأجساد التي ركضت، ثمة أجساد نثرها الضرب العنيف على جانبي الطريق، ضبّاط ذوو رتب كبيرة يدوسون الأجساد بأعقاب أرجلهم التي لفت داخل أحذية عسكرية ثقيلة صنعت في

ألمانيا، ووقعت اتفاقيتها داخل فندق قصر البستان قبل الشروع في كتابة مسرحية «قلب النِّظام بقوة السلاح».

تسير السيارة، عينا أحمد في الدفتر الذي فتحه كدليل ليصل إلى العنوان الذي كتبه قبل قليل داخل الدفتر، عيناه في البنايات البيضاء، يقرأ أرقام البنايات التي في خط محطة وقود السيارات. يعد الأرقام 1067 بناية بيضاء ذات أربعة طوابق. 1068 بناية سكنية تجارية، 1069 بناية من ثلاثة طوابق. 1070 بناية قديمة، تبدو من قدمها كما لو أنها من مخلفات الاستعمار البريطاني. بناية من طابقين، ذات ثماني شقق، وغرفة سطح.

يصل أحمد صاعدًا الدرج المفروش ببلاط أبيض.

لم يجد الإسطوانة القديمة أمام باب الشقة التاسعة في الطابق الثالث، فقرع الجرس، خرج الرجل الذي اتصل بأحمد، دخلا إلى مطبخ الشقة المستأجرة، وخلعا رقبة أنبوب الإسطوانة، أخذ الإسطوانة الفارغة، أعطاه ريالين وثمان مائة بيسة، وقال: «أخي الإسطوانة بثلاثة ريالات».

ـ خذ عشرة، وأرجع لي الباقي.

فوجئ أحمد، لأنه لم يكن معه سبعة ريالات. أنت أول واحد أبيع له هذا الصباح، وما عندي خردة، لكن ما مشكلة، هات اللي معك، والباقي على الله. أخذ ريالين وثمان مائة بيسة. رفع الإسطوانة على كتفه، وبدأ يعد الدرج إلى أن وصل إلى السيارة.

سارت سيارته وهي تزمّر في الحي ببطء واضح، كان دخان سجائره يخرج من فمه. يتجوّل الدخان في الغمارة الداخلية للسيارة.

يعود إلى النقطة المركزية لتجمع سيارات إسطوانات الغاز.

(3)

«ما أحب أبيع الغاز في الخوير الجديدة. تذكرني الخوير بصيف العام الماضي. أشد وأقوى عصا في حياتي سقطت على ظهري كانت في الخوير. حتى هذه الشامة التي تشبه الحرق في وجهي التصقت بي إثر سقوطي على رصيف الشارع المؤدي إلى الفندق. . .».

هكذا يحدّث أحمد أصحابه من سائقي سيارات الغاز.

«. . . حتى اللحظة بدأ الرزق بريالين وثمان مائة. يعني أول إسطوانة ما فيها فائدة تنزيل وترفيع، لو أخذت العشرة ريالات ونزلت أخردها كان استفدت من أول إسطوانة، لكن الله كريم».

يفتح الدفتر ويكتب «1».

رسم جنب الرقم سهمًا، ووضع بعده علامة =، ثم أضاف 2.8.

أغلق دفتره، ورمى به في حافظة السيارة.

ـ كيف اشتريتوا ريوق؟

ـ أجاب أغلب سائقي سيارات الغاز. لا .

ـ قال أحمد: اللي يفطر معي يدفع مائة بيسة.

بدأ بجمع مائة بيسة ممن أراد مشاركته في إفطار صباح هذا اليوم. جمع من خلف وصالح وعبد الكريم، وسلطان، وسعود.

زاد مائة بيسة من حافظة نقوده السوداء. مشى إلى إحدى البقالات القريبة من نقطة ارتكاز أصحاب سيارات الغاز. أخذ علبة «روب» كبيرة، وبمائتي بيسة أخذ كيسي خبز من نوع «صمّون». وصل إلى صحبه بعد أن قطع شارعين فرعيين.

تجمع رفاق المهنة جنب الظل الذي فرشته سيارة أحمد في الأرض. فتح علبة «الروب» بعد أن خضها جيدًا. سكبها في الكيس. صنع من الكيسين صحنًا. وزع الخبز، لكل واحد من زملائه قطعتا خبز ونصف قطعة.

أخرج من خلف كرسي سيارته كيسا، ظهرت منه أدوات طبخ، وأكياس ملح وبهارات، وأشياء أخرى لم يدعني غبار الأكياس رؤية محتواها.

ذرّ حبيبات ملح في الروب، رشّ الوجبة بشطة حارة، خلط ما رش به وجبة الصباح برأس نصف قطعة خبز كانت في أصابع يده.

الرفاق يأكلون بسعادة غامرة، يأكلون ويضحكون.

يعلِّقون على أحمد قائلين: هات قصتك. شخصان من الخمسة ملّوا حكاية أحمد عن الخوير الجديدة. أما الآخران فبدا من انفتاح صحني أذنيهما أمام ملعقة لسان أحمد كأنهما متلذذان بما يعيده أحمد من تفاصيل صغيرة عن الخوير. تختلف تلك التفاصيل بين حكاية يوم وآخر، تأتي الحكاية من فمه:

ما صرت أحب أبيع غاز في الخوير، ما قدرت أنسى مشهد الضرب اللي شفته العام الماضي، بس أنا أيش ذنبي، قالوا لي إن الناس سيخرجون مظاهرة، قلت يا الله أشوف، ما عمري شفت مظاهرة في حياتي، يمكن سمعت عنها مرة أو مرتين، والمظاهرات اللي نسمع عنها تكون خارج بلادنا، مظاهرات في المغرب، وتونس، والجزائر، ومصر، وسوريا، ولبنان، والكويت، والبحرين. بس بلادنا الوحيدة اللي الشعب فيها ساكت وما يتكلَّم.

أوقفت سيارتي أمام الحديقة، ولبست دشداشة، خفت أن يراني أحد من أهل البلد، ورحنا نمشي. رأيت بعض الأطفال مرفوعين فوق أكتاف الناس. أغلب الأطفال الذين جيء بهم؛ لاستعطاف الحكومة كانوا يرفعون صورا لأناس ذوي لحى كبيرة وعمائم بيضاء. سمعت أحدًا يقول: «المشايخ أبرياء من هذه التهمة» اللهم فكّ قيد مشائخنا الأبرياء من ادعاءات النظام «رددت ما قالوه. ما أن بدأنا المشي حتى وصلت حافلة زرقاء طويلة فيها رجال شرطة،

ومعهم عصي وهراوات. سمعت صفارة قوية، ثم رأيتهم يخرجون كأن أحدًا أشعل لهم نارًا داخل حافلتهم؛ مخافة أن تلتهمهم النار خرجوا لاهثين من النوافذ. كرشان كبيرتان لضابطين خرجا من الباب، كانت سرعتهما كسرعة النحل الذي يغادر مكانه بحثًا عن ماء، بدآ بالركض. يركضان وهما يضربان كل من هو أمامهما. ما إن رأيت الضرب والعصي تسقط من علو قامات كثر ركضت، كان خلفي فردان من الشرطة. لن أنسى منظرهما أبدًا. أسودان بدون رتب. أتذكر إضاءات الشارع التي أطفئت قبل عملية نزول الأفراد لشن الضرب وملاحقة كل من صلى المغرب في مسجد سعيد بن تيمور.

جاء رجل وسلّم على الخمسة الذين جلسوا تحت ظل سيارة أحمد. طلب إسطوانة غاز. وقف أحمد من تلك الدائرة، نظر إلى دفتر تنظيم عملية البيع في منطقة تجمع السيارات. ثم قال: «سلطان الكبسولي الحبيب دورك، قوم شلّ عمرك وخلي عنك المصارعة على الروب والخبز، سالفتي أنا ما تنفعك أظنها بتزيدك غم في غمنا كلنا . . ».

وقف سلطان، سار إلى سيارته المحاذية لآلة السحب السريع، أخذ من سيارة الرجل الإسطوانة الفارغة، سحبها كما تسحب السيارة الشاة الميتة إلى الوادي، تركت الإسطوانة خطًا أبيض في قطع الأنترلوك الحمراء المفروشة في المكان الذي اتخذه بائعو الغاز بيتًا لهم.

أخذ مبلغ الإسطوانة، أعطى سائق السيارة رقم هاتفه وقال: هذا رقمي واتصل أنا سآتيك إلى البيت، وفي أي وقت، ما ضروري تأتي إلى هنا. . . أخذ الرجل الرقم. شقّت سيارته طريقها داخل الزحمة التي بدأت تتشكل مع بداية هذا اليوم.

يعود سلطان؛ طالبًا من أحمد تحريك ملعقة لسانه، وفتح ماء حكايته، يسترسل أحمد في حكاية أوّل مظاهرة شارك فيها «كنا أكثر من ألف شخص، عدد كبيير، يمكن الناس ذاك اليوم لا تعد ولا تحصى، حتى اللي ما يصلي أبدًا صلى في يوم المظاهرة، المهم ركضنا في الظلام، من لم يركض أمسكوه، واللي مسكوه أخذوه في حافلة مغلقة، كأنها باص خبز، أتذكر فيها رقم أبيض، وفي الرقم دوارة زرقاء، مكتوب داخلها رقم 9، بعض المطاوعة ما ركضوا، وما تحركوا من مكانهم، واحد سمعته يقول للضابط، إذا فيك خير وتقول ود عرب اضرب، والله وضربه الضابط بعصا، وقبل لا يسقط من قوّة الضربة، سبّح المطوّعُ الضابط العود بتفالة في وجهه، أظنها ما أتخوز من وجهه لين يتقاعد من الشرطة، بعدها ركله بالحذاء الأسود، وأمر الضابط أفراده بأخذ المطوع. ظلت الشرطة ذاك اليوم تدق وتضرب، اللي جلس واتحدّاهم ضربوه، واللي طاح شلوه، واللي هرب ربك ستر أمره. . ».

اقتربت دقائق ساعات الأيادي الكادحة من الثامنة

لصباح هذا اليوم فرأينا الغازيين ينتشرون في الشوارع الفرعية للخوير.

ظلت سيارة أحمد، وسيارة أخرى نجهل اسم صاحبها واقفتين في المنطقة التي يجلس فيها أصحاب سيارات الغاز. صعد أحمد داخل سيارته، أصابعه تحرّك الدائرة السوداء التي على يمين جهاز التسجيل المركّب في سيارته، تبحث يداه عن إذاعة صافية، ما زالت الإذاعات نائمة، أزيز مخلوط بتشويش مزعج تدلقه سماعتا الجهاز المقيدتان بقطعتي مغناطيس ثقيلتين، سقطت عينا أحمد في العمود المساعد لعملية بحث واضحة وصافية للقنوات الإذاعية، سحبه من جيبه، خرج العمود، أطل برأسه يناطح الهواء الذي يساعد الحياة على خطواتها السائرة داخل المكان.

ظهر العمود عند نهايته معوّجًا، قال أحمد إن هذا العمود يشبهني، فحياتي قد اعوجت في بركة الفقر التي سقطت فيها داخل مسقط، الناس هنا تعيش بطريقة حلوة وجميلة. سيارات فخمة، بيوت جميلة، حدائق في البيوت، نساء لذيذات كالأيس كريم في الصيف، كل شيء في مسقط حلو، عدا الفقر، لا يدعك تعيش، لا تستطيع العيش بمائة ريال، أو حتى بمائتي ريال، لا تستطيع حتى شراء وجبة نظيفة من المطاعم اللبنانية. بهذه الوظيفة لن

أستطيع الزواج، الزواج أهم شيء في الحياة، الحياة بدون زواج نكد ونغص، بس من هذه البنت اللي بتريدك يا أحمد؟ الناس يزوجون بناتهم لمن معه وظيفة مرموقة، أصحاب الوظائف الحكومية يتزوجون بسرعة. ومن معه فلوس كثيرة يتزوج فورًا، الفقر مصيبة عظيمة، إنه أعظم المصائب، لا يبتلي الله به كل البشر، لن أدعه يأخذني إلى بركته العميقة، إن سقطت كاملًا فيها لما استطعت الخروج منها، لن أدعك أيها الفقر تقترب، إن اقتربت سأقتلك، بل لو كنت إنسانًا لصدمتك بهذه السيارة، سأفجّر فيك كل هذه الإسطوانات، حتى تلك الفارغة سأرميك بها، سأهشِّم رأسك. قبل أن تموت سأضحك كثيرًا عليك، بل إن استطعت الاقتراب من النار التي تأكلك لبصقت في وجهك، سأقتلك أيها الفقر.

ـ من قال لو كان الفقر رجلًا لقتلته؟

دوّن هذه الكلمات في دفتر رسائل هاتفه النقال، وبعثها لرقم حفظه داخل هاتفه النوكيا. يتفحص أحمد الأرقام التي في هاتفه. في واجهة هاتفه مصباح ينير به الظلمة لحظة أن يفحص سيارته، بعد رفعه للكرسي عن ماكينة سيارته المستأجرة. جعل من ألعاب هاتفه وسيلة تسلية في لحظات انتظار قدوم الزبائن. وحوله إلى مصباح ينير به الظلمات الحالكة السواد إذا ما أراد البحث عن شيء غاب عنه في السيارة.

وصلته رسالة ففتحها، قرأ الإجابة التي وصلته بعد أن أرسل سؤالًا يريد به اسم من قال «لو كان الفقر رجلًا لقتله؟». ضحك كثيرًا من الإجابة التي أرسلت له. يكتب ردًا في هاتفه ويضحك «لا تفكرني بغام. صحيح إني ما كمّلت الثانوية بس أعرف أن السلطان لم يقل هذا الكلام. ومن قالها أحد أصحاب النبي محمد».

يا عبقري زمانك اقرأ كتاب «رجال حول الرسول»، وإن وجدت أحدًا منهم قد قالها فكلامك صحيح.

هذه الرسالة الأخيرة كانت قد وصلت قبل عشرين ثانية إلى فم هاتف النوكيا الأسود، الذي اشتراه أحمد بعشرة ريالات من أحد المجمعات التجارية قبل سنتين تقريبًا.

امتعض أحمد من إصرار الشخص الذي يراسله على الجهل وكتب له «السلطان لم يقل شيئًا عن الفقر، فهو لا يعرف عن فقراء بلاده، ومقولته المشهورة هي «سنعلّم أبناءنا ولو تحت ظل شجرة». قبل أن تكتمل عملية إرسال ما كتبه أحمد في دفتر هاتفه الإلكتروني أجابته شركة الاتصالات قائلة: «رصيدك غير كاف لإتمام عملية إرسال الرسالة». لذلك ما وصلت هذه الرسالة بتاتًا إلى الشخص الذي أراد أحمد إشعاره أنه ليس جاهلًا بالمشاهير والعظماء الخالدين، أولئك الذين كرّسوا حياتهم لأجل الآخر، غير المرئي ولا المسموع عن ذاته الكادحة؛ من أجل حياة مليئة بالعزَّة والشَّرفِ.

(4)

يسمع أحمد صوت أمعائه، تشخر كشخير رجل نائم بعد عناء وتعب شديدين، تذكر صوت شخير والده، أخرجت ذاكرته جثة والده من القبر، جاءت العينان بالوالد الميِّت قبل سنوات، وضعتاه أمام الزجاجة الأمامية لواجهة السيارة، والد أحمد نائم في الزجاجة الأمامية لسيارة الغاز، أحمد في كرسي السيارة، يداه في المقود، وعيناه في أبيه الممدد في واجهة السيارة.

نعجز الآن عن معرفة المكان الذي تتأمله عينا أحمد، عيناه شاخصتان إلى البنايات التي تصطف كخط مستقيم لنخيل في صفٍّ واحد، رجل ترك قبره، استرخى في السراب المتلاشي بأبخرة سحاب مليء بغبار غير مرئي. رجل عماني بدشداشة بيضاء، وبمصرٍ رمادي فيه خيوط زرقاء خفيفة، الرجل يذكِّر أحمد بالماضي الذي عاشه مع والده في المستشفى، أحمد يسمع شخير أبيه، أبوه نائم في صالة بيتهم المتهالك، بيتهم الذي في القرية بني بعد عودة والدهم من الكويت.

آخ آآآآآخخخ آخ أخخ. . .

الوالد يشخر، أحمد في إحدى الغرف المقيدة بجدار في الصالة القديمة ذات السقف الخشبي، عيناه تعدان الخشب الممتد في سقف الغرفة، صوت رجل يطرق الباب، سمع أحمد طرق الباب؛ فخرج، وجد رجلًا يسأل عن أبيه، لم يقل أحمد إن والده غير موجود، دخل وأيقظ والده، عندما سمع الأخ الأكبر أحمد يوقظ أباه خرج غاضبًا وقال: «قلت لك إن أي أحد يسأل عن «أبوك» قل له إنه ما موجود عندما يكون نايم».

سقطت دموع خفيفة كرذاذ خريف من عيني أحمد، قطرات خفيفة شعر أحمد بملوحتها، أراد أن يثبت أنه أقوى من الماضي، ومن رذاذ العينين، ومن القلب الذي يتأثّر بكل شيء، أخذ ورقة محارم، مررها على زاويتي العينين اللتين في الوجه الأسمر، في تلك اللحظة رأت السماء ضرورة عودة أحمد إلى الأرض، فما كان إلا أن رن الهاتف. رفع السماعة، سجّل في الدفتر: مطعم الكبد التركي، الخوير مقابل محطة وقود المها، إسطوانة غاز كبيرة.

أغلق أحمد دفتر الزبائن، أدار المفتاح، رفضت الكهرباء إشغال السيارة، حاول ثانية وثالثة، عاندت السيارةُ طلبَ أحمد المتعطش إلى بيع إسطوانة غاز كبيرة .

قفز من الكرسي، رفعه وأراحه في المقود، حرك إصبعي البطارية بحصاة، دقّ قطعة جهاز على شكل إسطوانة غاز، توجد قرب البطارية، وهي موصلة بسلك قادم من محرك تشغيل السيارة إلى الماكينة.

أنزل الكرسي، أعاد تشغيل السيارة، أصرت السيارة على ما أراده القدر، حاول الكرّة مرة ثانية، فتح ما شعر أنه سبب في عناد السيارة.

مط جسده، مد أصابع يده اليمنى في إصبع البطارية، أخذ أصابع يده اليسرى؛ لتدير المفتاح، أرخى بين الأصابع كرسي السيارة الفاتح فمه عن الماكينة، رافعًا إياه بكتفه اليمنى. بعد هاتين المحاولتين المنقضيتين بصبر شديد من قوة احتملها جسده ساعده الله، أعطاه على قدّ نيته في الرّزق والكسب الحلال.

سيارته قد اشتغلت، سارت تحث الخطو نحو من اتصل طالبًا إسطوانة غاز كبيرة، رأسه مخرج من النافذة، ينتظر فرصة الدخول إلى الشارع، تزداد زحمة الناس والسيارات أمام دوار المحكمة، مدعون ومدعى عليهم يخرجون الآن من مبنى المحكمة الابتدائية ومحكمة الاستئناف. محامون مصريون ببشرتهم يخرجون، وسودانيون مختلفون في لون بشرتهم عن المصريين والشوام، محامون من المغرب العربي تسمع منهم كلمات لا تعرف معناها ولا المقصود منها، خصوصًا لحظة عبور الشارع. محامون عمانيون يتدرّبون على المرافعة، وآخرون يظهرون من ملابسهم كأنهم خرجوا لمشاهدة جلسة مداولة حكم أو مرافعة؛ ليكتبوا تقريرًا عما شاهدوه ليعطوه إلى أساتذتهم في الجامعة. شابتان عمانيتان ماسكتان أوراقًا مرفوعة على

صدريهما، هما آخر ما التقطته عينا أحمد قبل دخوله إلى الشارع، امتصته الطريق مبتلعة إياه إلى مطعم الكبد التركي. يصير الشارع أكثر هدوءًا وأقل ازدحامًا بعد أن تتجاوز مبنى المحكمة يسارًا أو يمينًا.

صار المكان خاليًا، السيارات توزّعت في شوارع مسقط، الشباب يكافحون من أجل الحياة، إنهم يجمعون مائة بيسة فوق الأخرى، كما لو أنهم ينفذون خطاب التاريخ، مائة بيسة فوق الأخرى تصير ريالًا بعد أيام، وريالًا فوق ريال ومن تحته ريال تصير عشرات ومئات الريالات، وهكذا يمكن للفقير أن يصبح ثريًا.

دار أحمد دورة صغيرة حول الخوير القديمة والجديدة، عاد إلى المكان الذي تحرّك منه، كتب في دفتره الذي يحاسب به نفسه، إسطوانة كبيرة، من هذا الدفتر يحسب فيه ما استفاده خلال شهر واحد.

في مرات كثيرة؛ نتيجة وجود وقت فراغ في أيام ليست قليلة، تراه يحسب بين كل يوم عدد الإسطوانات التي باعها في ذاك اليوم، ويضرب عدد الإسطوانات المبيعة في اثنين، بهذا يستطيع معرفة الفائدة التي يجنيها من البيع في كل اليوم، أو في الأسبوع أو الشهر.

في بعض المرات يدع فائدته في كيس بلاستيكي، ويرمي بها داخل حافظة السيارة. من ذاك المبلغ نراه يشتري بعض ما يسكت به الجوع الذي يعيشه هنا في مسقط. في

أغلب أيامه يشتري علبة ديو. كيس بطاطس عمان. خبزًا. روبًا. شطة حمراء. قطع كعك. تفاحة أو برتقالة من محالّ سوق الخوير القديمة.

تقف سيارة أحمد بين خطي قطع الأنترلوك في مكانها المعتاد. تمر سيارات كثيرة من أمام سيارته، أناس يأتون لسحب مبالغ من كابينة آلة السحب السريع. أحمد يغرق عينيه ويدفنها داخل سيارات النساء، متمنيًا أن يرى ما لم يره طازجًا في حياته، لم يسبق أن رأت عيناه نهدًا من صدر امرأة، كل علاقته بالنساء لا تتجاوز رؤية ما يتيحه حظ النظر له، في هذا المكان رأى سيقانًا عارية، وصدورًا تخيلها كالحليب لذيذة وحارة. موقف سيارته أتاح له الاطلاع على ما قد يظهر من النساء المستعجلات في سحب مبلغ من آلة السحب، هن غير منتبهات أن ثمة شابًا داخل سيارة غاز يحاول رؤية ما يعينه على الاستمناء داخل تلك السيارة، يعجب بالنساء اللواتي ينزلن من سيارات الدفع الرباعي، لحظة صعودهن إلى السيارة يرفعن العباءة، ترتفع العباءة؛ فتظهر نسبة كبيرة من الساق، تتيح له عيناه رؤية بعض الشعيرات الخفيفة، يتخيل أحمد الأشياء التي لم يستطع رؤيتها، وتلك التي لم يسبق له أن رآها طوال حياته، يتخيل شكل مؤخرة بيضاء لامرأة ممتلئة الردفين، صورة نهدين نافرين، بحلمتين قرمزيتين عند بداية رأس الحلمة، يعرّي خياله النساء اللواتي رآهن يسحبن من آلة البنك، يتخيل لون الملابس الداخلية، ويأتي بما رأى من

ملابس داخل المجمعات التجارية، يلبسها كل امرأة جاءت لتسحب من الآلة، يطلع على الواقع، متخيلًا أشياء لم يرها قط، يتحرك رأس شيطانه، يفتح جيب البنطلون ويخرج شيئه، يبصق أحمد في رأس ما أخرج من بنطلونه، يفركه داخل يده. تحرِّكُ أصابع يده اليمنى عصبة الشيطان الذي رأى الخوير من فتحة البنطلون، بعد أقل من خمس دقائق من رؤية المرأة التي سحبت من الآلة مالًا بصق الشيطان سائلًا غليظًا كسائل فاكهة النارجيل الفاسدة. يسترخي أحمد في سيارته. تموت عيناه وتتلاشيان في الغورين تحت حاجبيه، ينكمش الجسد داخل السيارة، يتكوّم على أعضاء بشرية فارغة من كل شيء، الرأس يشعر بخواء موحش ومهلك، ومؤد إلى الهاوية.

الظهيرة أطاحت بالأجساد تحت أجهزة التكييف التي تنفخ هواءها البارد داخل البيوت والشقق الشاهقة في سماء مسقط. مكث الهواء يحرك أوراقًا خفيفة في الشارع.

أحمد أرجع إلى خالقه الروح المتعبة، تلك التي تشظّى جسدها داخل السيارة، هذه طريقته في جماع من اشتهى، يفعل هكذا بكل امرأة رآها، وتمنى النوم معها.

(5)

سبع سيارات برتقالية تقف في محطة تجمع سيارات الغاز، هواء العصر خفيف وبارد، الناس في حالة تسوق باذخ، تخرج الأكياس من مجمع رواسكو التجاري صارخة من هول ما حمّلت إياه، السيارات خرجت من أوكارها التي تحت البنايات القديمة، البنايات الجديدة عبدت المال وما عادت تستغل الطابق الأرضي لمواقف سيارات مستأجري الشقق.

الراوي جاهل أسباب عدم استغلال الأرض لمواقف السيارات، هل البلدية أو الإسكان حرّما فعل ذلك؟ أم أن جشع وطمع مالكي مثل هذه البنايات رأى أن الفائدة تكمن في حال أن جعلت طوابق البنايات تخرج من باطن الأرض حتى تشعر الرائي أنها تكاد تلامس أول سحابة في السماء؟

نرى السيارات تتوزّع بطريقة عشوائية صارخة وواضحة جنب الظلال التي تخلقها بعض البنايات التي تبعد أمتارًا عن البناية المجاورة للبناية الجديدة.

تحوّلت أرض الخوير إلى بنايات جديدة، أغلب

البنايات القديمة دمِّرت بفعل قدمها. كادت تسقط من شدة تسرب المياه التي تخرج من أنابيب مطابخ الشقق أو دورات المياه. أملاح تتغذى من الحديد الذي أوقف البنايات طوال ثلاثة عقود مضت. جاعت الأملاح، فبدأت تتلذذ بأكل الأسمنت والطابوق الذي ساعد على وقوف البنايات القديمة.

بائعو الغاز يبحثون عن كرتون يستغلونه كبساط للجلوس، توزّعوا حول محال السوق القديمة في الخوير، بعضهم مشى جنب متنزه الحديقة الكهربائية للأطفال، وآخرون يبحثون في براميل الزبالة.

إن رأى أحدكم كرتونًا كبيرًا لا يحتاجه فليأخذه لهم. سيجدهم جالسين بعد رواسكو مباشرة. هم بشرٌ مميزون بلون سياراتهم، وبملابسهم في بعض المرات، وبالطريقة التي يحلقون بها شعر ذقونهم، بسطاء وطيبون مع الجميع، ترى أعينهم تحدق إلى وجوه الأجانب الذين في السيارات الفارهة، أولئك الذين نعموا بخيرات بلدهم، يتحسرون على حظهم، يهذون مع ذواتهم، يلوكون علكة الحظ، ينتظرون حياة أخرى لا تأتي.

حتى هذه اللحظة والشمس ستوقِّع انصراف العودة إلى منزلها في السماء وهم مازالوا يبحثون عن كرتون؛ ليجلسوا تحته. هناك الحشرات الصغيرة اللاسعة تمشي في الأنترلوك الأحمر، كلما وجدتْ أحدهم غافلًا غاصت داخل ملابسه،

أو إنها مشت في قميصه الذي لبسه، تدخل من فتحة الرقبة، تمشي بهدوء حتى تجد فرصة مناسبة لشن عملية هجوم ولسع شديد مفاجئ.

الآن وقد وصل «صالح سعيد» صاحب السيارة «المازدا» البرتقالية، وهي السيارة الثانية في جهة خط مجمع رواسكو التجاري، في يده كرتون كبير. تختفي ملامح صالح سعيد لحظة وقوفه من طول الكرتون الكبير. أحمد يتهجى كلمات اسم الشركة التي استفادت من هذا الكرتون، يتهجّاها بصمت ويقرأ الحروف من الكرتون «توي شيبا». مزّق الرفاق الكرتون، فرشوه على رصيف الشارع، هناك في المكان الذي يسير عليه مشاة الطريق. جلس الصحب خلف محطة البلاستيك لركاب سيارات الأجرة. وبدأوا بتوزيع ورق الـ ONU.

يشترون السجائر، السيجارة الواحدة بخمس وعشرين بيسة، يدخنون كلّما شعروا بالحرب التي يشنها الواقع ضدهم، يحاولون الانتصار عليه؛ لكن صانعي الواقع يزودونه بآلات حربية جديدة. لا يستطيعون الهروب من واقعهم المرير، لا يعرفون أن في الحياة خيالًا يستطيع الإنسان بواسطته أن يعيش واقعًا أقل وطئًا من الواقع الرابض على الناس البسطاء في أي مدينة كالخوير. يلجأون إلى الدخان تبريرًا للضعف الرابض في عقول لاعبي ورقة (الأونو). يعلّقون بكلماتهم على النساء الصينيات السائرات إلى أصحابهن في الشقق المتوزعة داخل البنايات، لا

يعرفون كلمات من اللغة الصينية، لذا يرددون ما حفظوا من كلمات اللغة الهندية أو من اللغة البنجالية، تسمعهم يقولون: «بال وسو» «قامن دسّو» «كيدر» «كيدر جرتا هيه» «وابص» وابص يو حبابي، وابص، وابص، قم شلني يا بساط الريح واوبص صوب الظلام. . .».

ظل أحمد يرفع صوته بالتايلندية قائلًا: «كمس تكاه يوأبوي، كمس تكاه يو حبابي. .».

ينطلقون في تلحين أغان تحتفي بتلك الكلمات، في أحيان قليلة يقفون معًا في صف واحد، يرقصون من هول فاجعة السخرية التي يعيشونها داخل مسقط. يلاحقون الصينيات، يرقصون أمامهن، في محاولة لإضحاكهن على أقل تقدير، وهن يبتعدن عن الكرتون الذي جعلته الحيلة بساطًا بنيًا. يتلاشين مبتعدات. نحن الذين في سياراتنا التي تشبه السلاحف في هذا الشارع نسمع كلمة «كدريه» بصوت عال، مع مدٍّ آخر حرفين في الكلمة.

سيارة الشرطة تسير في منطقة تجمّع سيارات بائعي الغاز، تسير بهدوء، عينا الشرطة على الشباب السبعة الذين يلعبون فوق الكرتون. يتأملون بشغف عملية اللعب، عينا راكب سيارة الشرطة على أرقام سيارات بيع ونقل إسطوانات الغاز، ينقل الشرطي أرقام لوائح السيارات وأنواعها، عدّ السيارات التي في جهة يمين الشارع ويساره، قبل اختفائهم رأى سعود سيارة الشرطة، أخبر زملاءه أن

سيارة الشرطة تسير ببطء جنب سياراتهم. سأل: جماعة حد مآذي حد، أو غلطان على حد؟

«حشا». هذه الكلمة قالها أربعة من لاعبي ورق الأونو، جاءت من ألسنتهم كأن شخصًا واحدًا قد قالها. «إذن خلوني أنا أروح أسألهم». سار سعود إلى سيارته، مر جنب الشرطي الذي في الأمام، زميله ينقل رقم سيارة عبدالكريم. أجزم أن سعود قد رأى الشرطي وهو ينقل رقم آخر سيارة واقفة في خط المجمّع التجاري نفسه. وقال: «خير إن شاء الله، حد يريد غاز منكم؟»

لم يجبه رجلا الشرطة، أحدهما رفع زجاج السيارة في وجهه، غابت سيارة الشرطة داخل الزحمة التي بدأت بالفيضان حول المطاعم لشراء وجبات العشاء الدسم.

أبخرة مشاوي اللحم والدجاج تبخِّر الجو، رائحة شوارما المطاعم العربية تختلط بروائح الفطائر وأنواع مختلفة من البيتزا، صاج الخبز يشوي العجين، الفرن يحيله إلى فطائر شهية.

سيارات الأرض كنجوم في سماء مظلمة، أبواقها تزعج عابري المكان، الصحب واقفون خلف محطة سيارات الأجرة، تشمّ أنوفهم روائح شيّ اللحم والدجاج، يتمازحون فيما بينهم، يدخّنون، يشترون صبرًا بعضًا من سجائر سلطان، لكنه فاجأهم أن سجائره قد انتهت، وما اشترى غيرها حتى هذه اللحظة.

يقرأ أحمد رسالة من صندوق هاتفه. ما نقل الرسالة في الدفتر، استأذن زملاءه، حرّك سيارته، مرّ أمام فندق راديسون ساس، وصل إلى محطة شل، فتح الرسالة التي وصلته، أيقن أنه ليس في المكان الصحيح فأرجع سيارته، دخل إحدى سكك الخوير، قرأ رقم السكة، مشى بسيارته داخل الشارع الضيق، انعطف يمينًا، سار متجاوزًا أول منزلين، أدخل السيارة بين بيتين، أحدهما على جهة يمينه ذو طابق واحد، وآخر على جهة اليسار ذو طابقين، أخرج هاتفه، قرأ منه رقم المنزل، قرع الجرس، خرج له صبي يبدو في العاشرة أو في الحادية عشرة من عمره. قال أحمد للصبي:

ـ شوف أهلك طالبين غاز؟

ـ من خبّرك؟

ـ ما حد، بس جتني رسالة حد طالب غاز على ذا العنوان.

ـ وين الرقم اللي جتك منه الرسالة؟

ـ هذا.

ـ هذا رقم أمي.

ـ اسألها؟

دخل الصبي إلى البيت، وقف أحمد أمام الباب، عيناه على السيارة التي داخل البيت، يحاول تذكّر المكان الذي رأى فيه هذه السيارة لأول مرّة، يعصر ذاكرته متأمّلا

رقم السيارة الذي في BMW الأزرق، خانته الذاكرة، وما استطاعت تزويده بأي شيء في تلك اللحظة.

جاءته المرأة، بدا من شكلها أن عمرها يتأرجح في الأربعينيات، ترتدي جينزًا أزرق، وتي شيرت أبيض خفيفًا بنصف كمّ، سلّمتْ عليه، يجاهد أحمد في تذكّر اللحظة أو المكان الذي رأى فيه هذه المرأة أول مرَّة.

تتصارع الذاكرة مع الزمن، تختلط المشاهد، تختلف الأشياء وتتشابه، تظهر وتختفي، تحضر وتغيب، غيبت ذاكرة تلك اللحظة المشهد الذي رأى فيه هذه المرأة. رغم أنها الآن تكلّمه، وهو يسمع صوتها، حتى صوتها ليس غريبًا على أذنه، هذا ما قاله لنفسه، يسير ساحبًا الإسطوانة إلى داخل البيت، هي تتقدمه، وابنها خلفه، يظهر أحمد بينهما كأنه رجل البيت العائد من عمل مضن، يده خالية مما قد يفرح به الأب أولاده بعد أيام مليئة بالغياب، وحدها الإسطوانة تقبّل أثر الحذاء.

في المطبخ الخارجي المنفصل عن جسد البيت الذي بطابق واحد يسعى أحمد إلى فتح حديث مع المرأة التي يسقيها بنظرات شبه خجولة، ينظر إليها كلما وجدت عيناه فرصة لسرقة لمحة من صدرها النافر. يتأمّل خط الستيان كلما أدارت ظهرها أو مرت من أمام المطبخ. انصرف أحمد آخذًا المبلغ الذي استلمه عن إسطوانة الغاز من يد المرأة. أعطاها عنوانه بصفته عمانيًا يبيع الغاز في مسقط.

(6)

يعد أحمد الإسطوانات التي بيعت في هذا الشهر. دفتر التقويم الأزرق الذي فيه شعار إحدى الشركات الوطنية في يده. العين تحصي الإسطوانات المبيعة خلال الأسبوع الثالث من الشهر الجاري. سبع وستون إسطوانة نفذت خلال الأيام الخمسة الماضية. مائة وثلاث وعشرون إسطوانة نفذت من الكمية التي يشحنها أحمد صباح كل يوم من السيارة الكبيرة للشركة التي يعمل فيها. تسع إسطوانات كبيرة الحجم بيعت خلال تسعة عشر يومًا من أيام هذا الشهر.

يفرح أحمد ببيع الإسطوانات الكبيرة. في كل إسطوانة نصف ريال.

الأوراق الأخيرة من هذا الدفتر جعلها لحساب فائدة البيع. يبدأ عملياته الحسابية، من شاشة هاتفه النقال يخرج حاسبته، يضرب تسعة في خمسة، فيأتيه الناتج خمسة وأربعون، ويسجل أربعة ريالات ونصف ريال من الإسطوانات الكبيرة. لم ينس فائدة بيع الإسطوانات الصغيرة ويأتيه الناتج أربعة وعشرون ريالًا وستة مائة بيسة. يكتب 80 + 29,100 = 109,100.

هذه ليست عيشة، ولا راتب آدمي في مسقط، هل يعقل أن أعيش براتب كهذا دائمًا؟ إما أن نتفق على رفع قيمة الغاز، ونبيعه بأربعة ريالات على الأقل، وإما أن نخرج إلى وظيفة ثانية، حتى وإن كانت خارج مسقط، هذا ليس مهمًا، ما يهم في هذه اللحظة هو أن أفكِّر بطريقة مجدية في البحث عن وظيفة أخرى، وظيفة تكون أكثر قدرة على درٍّ راتب يعين على غلاء المعيشة.

يصل إلى المكان المعتاد، إلى بيته في الهواء وضجيج السيارات، تقف سيارته حيث روائح أدخنة العشاء تبخِّر الجو بالمشويات من اللحم والدجاج.

قمر هذه الليلة يكشف عن سماء مختلطة بسحب كثيفة، القمر ينزِّل السحب، ويُظْهِرُ الماء الذي في جوفها، تتراقص السحب على وقع صوت أمعاء أحمد. تلك الأمعاء الجائعة من هول الفقر الذي يكابده بائع الغاز بين فكي أسنان هذه المدينة تصرخ من شدة الجوع. لا أحد يغيث صراخ الأمعاء قرب رئة تفيض بأنواع مختلفة من التبغِ.

كلما طرق هاتفه باب غفوته فرح برنينه، الآن يسأله من يكلِّمه عن موقعه في هذه اللحظة، يخبر أنه في نقطة بيع الغاز، يردد أحمد «تفضّل تفضّل..» يغلق هاتفه، يسير ماشيًا، يمطّ قدميه بين خطوة وأخرى، طوته أزقة المكان، مر جنب محال تعرض أدوات قطع كرتونية، وأخرى تبيع

قطعًا بلاستيكية لحفظ أطعمة سريعة وخفيفة، محل نجارة، محلّ صغير بدون كراس ولا طاولات خارجية، اللائحة الصفراء أظهرت أنه مقهى، وهو منزو في زاوية بناية بيضاء قديمة. قفز فوق أرصفة محل ذي طابقين، دخل إلى محل خضروات وفواكه.

بتلك السرعة عاد إلى مكان معيشته حاملًا كيسًا أسود، في الكيس كرتون بلاستيكي أبيض، في الكرتون حوالى عشر تفاحات حمراء. بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق جاءته سيارة فيها شاب، نزل وسلّم عليه، لم يدم طويلًا وقوف الشاب مع أحمد، أخذ كرتون التفاح. وحمّله أمانة سلام لأمه.

يسترجع أحمد آخر مرّة رأى فيها أمه، كان ذلك بعد انتهاء إجازة عيد الأضحى في قريته، في إجازتي عيد الفطر والأضحى، لا يحتاج الخويريون إلى الغاز، يأكلون من المطاعم. أكثرهم يسافرون إلى البلدان التي جاءوا منها حالمين بما يسعى إليه المغترب.

العمانيون يقضون إجازة العيدين في قراهم وولاياتهم التي يحملون أسماءها في بطاقة الهوية. في بطاقة الهوية ثمة خانة تؤكد أصل الإقامة الدائمة، أشياء كثيرة يستطيع العماني تغييرها في حياته، شيء واحد يعجز عن تبديله، العنوان الدائم هو المكان الذي ولد فيه هذا الإنسان، لذا

لا يجرؤ على تغييره. التزوير والسرقة أسهل وأيسر من تغيير الإقامة الدائمة.

كل هذا قاله أحمد، عيناه على تاريخ انتهاء بطاقته الشخصية، سقطت البطاقة عندما أخرجها من جيب حافظته التي يضم فيها «رخصة قيادته، بطاقة القوى العاملة، بطاقته الشخصية، صورة شخصية ذات خلفية زرقاء لأخيه الميّت في حادث سير، وصورة أخرى لفتاة بزي طالبات المدارس الثانوية، أجزم أن عمرها لم يتجاوز ثمانية عشر صيفًا».

تساوت البطاقة في سماكتها مع أرضية الأنترلوك حيث موقف سيارة الغاز، يحاول أخذها واستعادتها إلى جيبه، ما استطاع التقاطها بظفره، ما عادت أظفاره قادرة على أخذ ما قد يتساوى في سماكته مع أرضية المكان الذي سقط فيه.

«تبديل أمور كثيرة أسهل وأيسر من تغيير الإقامة الدائمة في البطاقة الشخصية».

يستعيد أحمد الجملة التي تلفظ بها عميد من الشرطة. كان ذلك أمام بيت العميد في مدينة الإعلام. أحمد زبونه الدائم، يزوده بإسطوانات الغاز، كلما اتصل سائق ومدير أعمال العميد طالبًا الغاز من أحمد.

في مرة التقاه أمام الفيلا، في حديث سريع تجرأ طالبًا مساعدة على تغيير العنوان الدائم من بطاقته الشخصية. كل ذلك ليثبت أنه من سكان محافظة مسقط.

يتذكّر أحمد محاولاته الدائمة والمتكررة لأخذ قطعة أرض في مسقط. كانوا قد طلبوا منه واحدًا من عدة خيارات توجد في الاستمارة الزرقاء المبيعة للمواطنين لتقديم طلب الحصول على قطعة أرض في مسقط.

دفع ريالًا ونصف ريال للاستمارة، عبّأ بياناتها، أودعها مركز بريد الخوير. ذاك الذي يأتي جنب صف أشجار جامع سعيد بن تيمور، أرجعت وزارة الإسكان استمارة أحمد إلى البريد، أوضح له موظف البريد بعض الخيارات التي تعينه على الحصول على قطعة أرض، كل الخيارات الموضحة في الاستمارة لا تسمح له بالحصول على قطعة أرض في مسقط.

أحمد ليس من مواليد مسقط. غير متزوِّج، وبهذا ليس معه أبناء ولدوا في مسقط. لم يدرس في الجامعة، ومسقط ليست عنوانه الدائم. كما أنه لم يجد أحدًا حتى هذه اللحظة يؤجّره الأرضية التي ينام فيها فارشًا كرتونه الورقي كبساط في عرصة دار مفتوحة على باب يفضي إلى وجع جوع وضجيج شارع.

«يعني أبدًا ما ممكن أحصل على قطعة أرض، يا أخي خلني من سكان مسقط، حتى إن أرادوني زطي أو عاشوري فأنا بحاجة إلى أرض في مسقط، ما عندي مشكلة في القبيلة، طز فيها وفي كل قبائل عُمان، المهم أن يحصل الإنسان على أرض، أنا ما أطلب شيء مستحيل».

أخرج خمسين بيسة، يحاول التقاط بطاقته الشخصية. عقله مشغول في معرفة الورقة النقدية التي أخرجها من جيبه، طلب من صاحبه أن تعطى أمه مع كرتون التفاح الذي اشتراه من السوق قبل ساعات من هذه اللحظة.

اقترح على زملائه الذين وقفوا مستندين إلى سيارته ضرورة رفع سعر إسطوانة الغاز. كل شيء في مسقط صار غاليًا. الطعام، الشُّرب، الإيجار، الأسمنت، الحديد، الماء، حتى دورات المياه تحتاج إلى خمسين بيسة. كلما شعرنا أن مثانتنا تصرخ من ثقل الماء الأصفر دفعنا خمسين بيسة. «والله صباح أمس ذهبت إلى دورة مياه داخل محطة نفط عُمان، فسألتهم عن مفتاحها بعد أن وجدتها مغلقة، طلبوا مني خمسين بيسة قبل أن أدخل، فوجئت وقلت للموظف عساي أبول في ملابسي، لكني لن أدفع فلسًا واحدًا لأجل دخول سريع للحمام. . ».

أهل مسقط لا يجادلون في ما تقوله من مبلغ، يدفعون ما تطلب، بل لا يتذمّرون من ارتفاع الأسعار. وهم يعون أن الحياة لم تكن مثل السابق. الحكومة لا تتابع السوق. ارفع السعر كما تشاء، بع ما تشاء بأي سعر تريده. أنا ما استفدت من بيع الغاز بهذا السعر. ما رأيكم يا أصدقائي أن نبيع الغاز بأربعة ريالات، نتفق على كلمة واحدة، من أرادها فليأخذها بهذا السعر، ومن لم يرد الغاز فليصبر حتى يقضي الله أمرًا اتفقنا عليه.

أظهر الصحب إعجابًا برأي أحمد. غير أن أحدهم خالف أحمد في قيمة الإسطوانة قائلًا: لماذا لا نتفق في البداية على ثلاثة ريالات ونصف ريال قيمة الإسطوانة الصغيرة. وسبعة ريالات قيمة الإسطوانة الكبيرة؟.

«صدقني أنهم سيدفعون ولن يشتكوا أبدًا. فلندع أربعة ريالات قيمة كل إسطوانة غاز..».

رضي الصامتون برأي أحمد. تعاهدوا أن لا يخونوا بعضهم بعضًا في سعر إسطوانات الغاز.

من يملك مأوى ينام فيه مع أحد ذهب ليستريح، ومن لا يملك أخرج كرتونه الورقي، وفرشه في المكان الفارغ داخل غمارة سيارته الخارجية.

نزلت السحب قريبة من وجوه الفارشين أسرّتهم الكرتونية، بدأت السماء تغسل التعب الذي شعر به بائعو الغاز، فحّت السحب ورشّت المكان، لكن بسبب فيضان التعب من جسد أحمد لم يشعر بالزّخات البطيئة للمطر الخفيف، تكتك المطر وتكتك في الكرتون الورقي، ما أحد شعر بتلك التكتكات، تحولت التكتكات الخفيفة إلى طقطقات سريعة ومتواصلة، استيقظ أحمد، رأى ملابسه قد بُلِّلت بماء المطر، كطير داهمته ريح ومطر مفاجئ طار إلى جوف سيارته، سريره الكرتوني ظل يمتص الطقطقات المائية ويحرس إسطوانات الغاز.

في الظلمة التي داخل السيارة شعر أحمد بالدفء

قليلًا، رغم أن الزجاج الأمامي للسيارة كان شبه بارد، يمد جلد يده، فتشعر شعيراته بالحياة، كان الجو خارج كابينة السيارة باردًا، إلا أن في الداخل حرارة دعته لخلع ملابسه.

علّق ما خلع من ملابس في مقبض يد الراكب الأمامي، ساعده ظلام ما بعد الواحدة ليلًا على ارتداء إزار وفانيلة بيضاء، أخرجهما من كيس كان خلف كرسي سيارة الغاز، ظلت السيارات تحرس المكان، ماكينة السحب الآلي في أمن وأمان، هذه الماكينة الوحيدة التي تشعر بالأمن في مسقط، حتى أن المصرف لم يركِّب جهاز إنذار أو آلة تصوير للمراقبة، بائعو الغاز هم كاميرات مفتوحة على التقاط أي مشهد من ملامح المكان وشخوصه.

قفزت فكرة عابرة إلى رأس أحمد، روجتها السماء. الحواس تنفِّذ ما أتى به العقل. اليدان تخلعان الفانيلة البيضاء. حرك السيارة. أوقفها بالعرض خلف محطة منتظري سيارات الأجرة. خلع إزاره، ارتدى تُبانًا لستر عورته. نزل وكاد يصرخ من هول المطر الذي يسقط على ظهره. وقف عاريًا إلا من التُبان. المطر والليل صارا مسبحًا يغسل فيه أحمد أردان شقائه. الآثار الباقية في كتفه من أثر إسطوانات الغاز التي حملها في أيامه الماضية تتساقط معالمها مع المطر الذي يغسل جسده المتسخ تحت سماء مسبح مظلم في الخوير.

(7)

صوت المرأة ليس غريبًا، إني رأيتها سابقًا، لكن لا أدري متى حدث ذلك؟ وفي أي مكان رأى أحدنا الآخر؟ إنها هي، المرأة صاحبة البي أم الزرقاء أعرفها، لا أستطيع أن أقول إن معرفتي بها جيدة، من نعرفه جيدًا نتذكر اسمه، وشكله، نتذكر آخر لقاء جمعنا به، لكني نسيت ذلك، نسيت كل شيء، أخشى نسيان نفسي في هذه السيارة، كثيرة هي المرات التي نسيت فيها وجودي داخل هذا الكرسي، لولا رنين الزبائن بين ساعة وأخرى؛ لنسيت أني أحيا داخل قلب مدينة تنبض مستقبلًا مجهولًا وغامضًا، كغموض مستقبل ممثلي مسرحية «القلب بالقوّة»، لكن ما الذي أريده من امرأة اتصلت طالبة إسطوانة غاز لبيتها؟

امرأة مرَّت برسالة عبر الهاتف، ثم تلاشت وغابت بعد ما دفعت من مبلغ، لما يشغلني عقلي بامرأة مشت أمام العين لدقائق بسيطة، واختفت داخل عزلة بيتيّة، لكن ما يدريني إن كانت تعيش في عزلة، أم أنها تعيش في جو فائض بالحراك اليومي، يا ترى هل تعيش وحيدة مع ولدها؟ أم أن زوجها مسافر؟

لا إنه ليس مسافرًا. إن كان زوجها متدينًا فأكيد إنه يقضي فترة عقوبة السجن. مخرج المسرحية التي حدثت في زمن الاشتباك رأى ضرورة التنكيل بالذين مثلوا المذهب، في زمن الاشتباك بلدي عاقب كل من ربى لحية، أو ارتدى عمامة بيضاء.

قد يكون زوجها ضحية المسرحية المجهولة المؤلف، هل يعقل أن تخرج زوجة إنسان متدين بذاك اللبس الذي رأيته البارحة وقد ارتدته تلك المرأة التي في الخوير؟ لا إنها ليست زوجة أحد سجناء مسرحية زمن الاشتباك العالمي. لكن لمَ صدقت أنا ما قاله الناس؟ إنها ليست مسرحية، جماعة متطرفة أرادت قلب كرسي السلطان بالقوة، وبالسهولة قلبت فوق رؤوسهم أطنان من الكراسي، لا ليس هكذا، لكن هل يرضى وطني العزيز أن يزج بأناس في قضية أخذت الممثلين إلى طريق مسدود داخل زنزانات مسقط؟

يتأمل البقعة السوداء تحت طرف عينه اليمنى، تصور مرايا السيارة وجه أحمد. فتأتي بصورة الوجه مشوّه الملامح. دم جف وتجمد داخل الجلد، صار الشكل قبيحًا من تلك العلامة الظاهرة، شامة ظاهرة وواضحة تحت طرف العين. كلما تلمّست أصابعه تلك العلامة رأى نفسه يركض ويتبعه شرطيان، سمع نفسه تردد ما قاله كل الذين ركضوا، أولئك الذين صبروا في تلك الليلة على جلد سياط رجال المهام السرية الصعبة.

لولا هذه العلامة لاستطعت أن أقضي إجازة العيد الوطنيِّ داخل القرية. إن غيابي عن القرية ورجوعي إليهم بعد هذه المدّة الطويلة يجعل مني أحد أعضاء التنظيم المحظور، خصوصًا وأني تعودت زيارة قريتي ووجهي مكتس بشعيرات مهذبة ومنظّمة، إني بهذه العلامة أكون فردًا ممن سجنوا ليعترفوا بحمل أسلحة لم يروها مطلقًا، أسلحة ظهرت تحت بيوت لم يكتمل بنيانها في التلفزيونات الملونة، لكن من صوّر تلك الأسلحة؟ ولمن البيت الكبير الذي رأيناه من تلفاز المقهى؟ كيف صنعوا مسرح جريمتهم المؤثث بخرسانات أسمنتية أمامها أسلحة وطلقات رصاص، ومتفجرات ببطاريات غريبة وعجيبة؟ هل يعقل أن أحد هؤلاء كان ينوي استخدام تلك الأسلحة في تهديد أمننا النائم على وسائد من ريش نعام؟ لكن لماذا يهددون سلطانًا ترك باب الحياة مفتوحًا على مصراعيه؟ مصراع يقف أمامه أناس بلحى طويلة وعمائم بيضاء، وآخر جنبه صعاليك حياة ومشعوذو مخابرات وأمن ودجالو ألسنة كاذبة تقتات بواقع مريض بأمراض مزمنة. هل يستحق سلطانٌ كهذا أن يدحرج من على الكرسي؟ إنهم بهذه الأفكار كادوا يصيرون مشتتي وطن جميل وشعب كريم!

لماذا لا أعود إلى قريتي؟ هناك أستطيع إذا ما عملت أن أحصل على ما أحصل عليه هنا نفسه، لكن ماذا سأعمل هناك؟ إما أحد موظفي البلدية، داخل شاحنة برتقالية، أركض من برميل إلى آخر، أمرُّ في الصباح على براميل

الزبالة أمام بيوت القرية، سأرى كل الأشياء التي رماها أهل قريتي في براميلهم، وفي المساء أستطيع الحصول على وظيفة ثانية، بائع في أحد دكاكين القرية. سأكون موظفًا في الحكومة، لي ما للموظفين، وعليّ ما عليهم، لي راتب تقاعد قبل أن أموت، ولي إجازة سنوية كالخلق. إن مرضت منحني الطبيب إجازة عن العمل، وإذا ما مات أحد أقاربي أعطيت إجازة للعزاء، أستطيع يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع أن أعمل بائعًا حتى في سوق الولاية. سأنادي على الأغنام، والأسلحة التقليدية القديمة، على فواكه وخضار قرى تصل بعد الفجر إلى السوق، لكن عملي في البلدية صعب هو الآخر، مللت السيارات البرتقالية، كرهتها، وكرهت لونها، إنه العلامة الوحيدة المميزة لسيارات جمع الزبالة ولسيارات الغاز.

العودة بعلامة تدحرج وسقوط على وجه الرصيف داخل جلد الوجه لأمر صعب. إن أطلت لحيتي كي لا تظهر علامة سقوطي على الرصيف سيظن الكثيرون أني أحد الذين لم يشملهم اختيار المخرج لعرض المسرحية. إن عدت وأنا حليق اللحية سيقال إن أحدًا ما ضربني على وجهي ضربًا مبرحًا إثر محاولة اقتحامي لأحد بيوت سكان الخوير.

قال «أهاه» بشفاه كادت تسمع من بجانبه تلك الكلمة، ثم أردف صامتًا مع ذاته «الآن تذكرت آخر امرأة

طلبت إسطوانة غاز ليلة أمس. وهي التي في مقطع صوتي مسجّل في ذاكرة هاتف أخي الميت، هي المرأة ذاتها التي يقفز المرحوم داخل بيتها عبر الجدار القصير الذي يأتي عند باب المطبخ الخارجي، أنا قلت إن وجهها مألوف لذاكرتي، هل أرسل إليها صورته؟ قد تفاجأ وتشعر أنه لم يمت. إن حركة مثل هذه تأخذها من الحياة إلى الموت. قد تقتلها رؤية صورة رجل أحبته بعد أن طلّقها زوجها، قد يغشى عليها، لأنها سترى إنسانًا حيًّا داخل شاشة هاتفها.

في حال أغمي عليها فجأة سيصرخ ابنها، سيستغيث، سيركض جيرانه غائثين صوت بكائه الذي قد يستمر حتى بعد إغاثة الجيران له، قد يشكّ أن الرسالة الأخيرة التي وصلتها كانت سببًا في سقوطها داخل صالة البيت، سيسعى إلى معرفة صاحب الصورة، ورقم المرسل، وعلاقتها بالرجل الذي دخل بواسطة هاتفها النقال ليقتلها، أو ليصيبها بمرض مزمن وخطير، قد يصيبها شلل في لسانها، أو قد تتعرض لشلل نصفي، لماذا أضايقها بمشهد كهذا؟ لمَ لا أكون أنا في حياتها، وأصبح من الغد مكان المرحوم؟ لكن التشويه الذي في وجهي قد يكون سببًا لأن ترفض علاقتي معها، وما يدريني ما أمرها؟ ربما تزوّجت، أو صاحبت أحدًا آخر، أو قررت قطع علاقتها بأي أحد.

كل شيء جائز وقد يحدث في أي وقت، سأتصل بها، سأبدأ حديثي معها مؤكدًا أني الآن قادم، تأخرت

بسبب زحمة خروج الناس للعمل، والشارع يفيض بالزحمة من شدة أمطار ليلة أمس، أنا آسف على التأخير، أعلم حاجتكم للغاز في أول الصباح، سأختصر الشارع لأجل خاطر ذهاب الولد إلى المدرسة، عذرًا مرة ثانية سيدتي الفاضلة، مع ذلك أنا أقترب من عنوان منزلكم الذي وصلني في رسالة عبر الهاتف، ما أردت الردّ برنة واحدة كما يفعل أكثر بائعي الغاز، أنا لم أنتظر اتصالك، أنا اتصلت بك معتذرًا، لأطلب من خادمة المنزل أن تساعدني على إخراج الإسطوانة خارج باب المطبخ، فقط لكي لا أتأخر، أنا على استعداد أن أخرجها بنفسي لحظة أن أصل، أنا قريب، دقيقة واحدة وسأقرع جرس باب منزلك.

يخرج رقم هاتف المرأة من الصندوق الوارد، يسجله في إحدى صفحات دفتر حسابات بيع الغاز، ينقله في أزرار هاتفه، يضغط الزِّرَّ الأخضر، ويقرأ جاري الاتصال، يأتيه صوت المرأة، يقول صباح الخير سيدتي، ويعيد ما كلّم به نفسه، يضيع أغلب الكلام، يختلط كلام كثير بكلامه الجديد، لكنك جئت أمس وأتيت بإسطوانة الغاز، ولم تتأخر علينا قط، أرسلنا لك رسالة وجئت بعدها مباشرة، علمًا أني أخذت رقمك من إحدى زميلاتي في العمل، وقد أرسلته لي بطاقة أعمال. وحفظته بالاسم نفسه الذي جاءني عبر تقنية بطاقة الأعمال. غاز سريع جدًا. أنت غاز وسريع. تضحك ويضحك على ما قالته. لكن لماذا اتصلت الآن ثانية؟

منذ أن بعتك الإسطوانة تحدثت مع أصدقائي عن كل شيء، هل تصدقين ما بعت أي إسطوانة بعد التي بعتك إياها؟ فتشابكت عليّ أمور كثيرة، اعتقدت أني لم أوصِّل لك الإسطوانة التي طلبتها.

ـ لكن لم يمض وقت كثير منذ البارحة حتى هذه اللحظة.

بالنسبة إلي أنا وقت كثير، من الضروري أن أبيع بين كل نصف ساعة أو أربعين دقيقة أو ستين دقيقة في أقصى حد إسطوانة واحدة على الأقل؛ لأجد ما أستطيع به العيش، منذ أن خرجت عنكِ طلبت من الأصدقاء ضرورة رفع سعر الغاز، فوافقوا جميعهم. حيث سعر إسطوانة واحدة لا يكفي لملء السيارة بالديزل، أنت تعلمين أنهم رفعوا قيمة الديزل، أشك أنه صار أغلى من البترول، هل تعرفين أن سعر ثلاث إسطوانات غاز يساوي سعر برميل كامل لهذه السيارة؟

واااا الديزل غال جدًا، ما كنت أعرف أن سعر خزان السيارة الواحدة يساوي سعر ثلاث إسطوانات، كنت أريد أن أسألك أمس عن الضربة التي تحت عينك. ثمة ما يشبه دمًا كثيفًا يابسًا وجافًا داخل الجلد، حتى جلدك الخارجي متشوه، كأنه حرق ماء ساخن، أو حرق مكواة ملابس. الآن أقولها لك سلامات!؟

هذه ضريبة الخروج في مظاهرة حبيبتي، عذرًا

صديقتي، أنا آسف أشعر بتلعثم في بعض المرّات خصوصًا عندما أتكلّم مع امرأة، أقصد أختي العزيزة.

ـ لماذا تشعر بتلعثم؟

ـ الجوع، الجوع يا أختي، هل تصدقين أن في اليوم الواحد إذا أكلت فإنها وجبة واحدة، في بعض المرات يفقد اللسان سيطرته بسبب الجوع، لذا تسمعين مني كلمات قد لا ينبغي قولها، أو أن التلفظ بها لم يحن بعد، في مرات يشل الجوع العقل، وأحدِّث الرجل بضمير الأنثى، ومرات يحدث العكس، قبل أسبوع غضب أحد زبائني لكثرة ما قلت له أنتِ أثناء حديثي معه.

دعنا من خيانة اللسان لما تريد قوله للناس، أي مظاهرة قصدت؟ ما عمري رأيت مظاهرة في أي مكان داخل مسقط؟! مرة واحدة أيام وفاة الدرّة فقط، وكانت أمام مسجد الزواوي، ما أن وصل المتظاهرون إلى مخبز مسقط حتى جاءت الشرطة وفرقتهم بالعصي والغاز المسيل للدموع، منذ تلك المظاهرة لم أر ولم أسمع عن مظاهرة داخل مسقط، تحدث أشياء عديدة وانتهاكات كثيرة ويعلن عن سرقات، وتكشف خيانات الوطن بالجملة، وما يتظاهر أحد على أي حدث، إذن أنا لن أتحدث معكِ عن سبب تشوه الوجه في الهاتف، إن أردت معرفة أسباب المظاهرة وما حدث فيها حددي موعدًا نلتقي فيه. سأحكي لكِ كل شيء حدث أمام

المسجد، بالقرب من محطة وقود المها، في الخوير 33، أنتَ، لا لا أقصد أنتِ حددي الوقت، وأنا..

نوى أن يقول شيئًا. لكن هاتفا داهمه في جهة الانتظار. وقال: يا الله باي باي معي زبون على الخط.

الزبون ينتظر معاودة الاتصال من بائع الغاز. أحمد ينتظر من الزبون أن يتصل: اللي يريد غاز يتصل. المحتاج عاني. قال أحمد هذا المثل. داخله يحدِّث خارجه. فكلما قال مثلًا تذكّر أمه. تلك العجوز التي تحفظ الأمثال القديمة. إن قال لها أحد اخبري عن كل مثل تحفظينه قالت: ما أحفظ غير يوم أذكِّر سالفة بسالفة. والمثل ما يقال دون حكاية. من يوم عرفنا الأمثال من أمهاتنا وجداتنا عرفنا أن المثل ارتبط بحكاية سبقته.

في موج السراب الذي يتبع أثره من الزجاج الأمامي لسيارة الغاز الواقفة في وجه بنك مسقط ومكتبة الفكر رأى أمه تخرج من البيت، في يدها طعام داخل كيس، تذهب الآن إلى البيت الذي تعمل فيه مربية طفلة الأستاذ الملاح الزعبي، جارها العربي. الملاح قادم إلى القرية أستاذًا لموسيقا المدرسة، زوجته مدرّسة التربية الفنية في مدرسة البنات.

استأجر بيتًا عربيًا صغيرًا قريبًا من بيت أم أحمد. في الصباح تخرج العجوز سلمى لتجلس مع رؤى طفلة الملاح. تجلس معها حتى الثانية من ظهر أيام الأسبوع

الخمسة، تدخل البيت في السادسة والخمس والأربعين دقيقة، منذ أن تستيقظ رؤى حتى تنام مرّة ثانية يسمع من يمر أمام باب بيت الملاح شجن العجوز سلمى ملحنًا عن الماضي وأنس أيامه.

تغني العجوز أغاني شعبية، تهدهد الطفلة كلما نعست، وبعد استيقاظها تسبّحها، وتلبسها ما ترك لها من ملابس داخل حقيبة تكون عادة قرب باب صالة المنزل المستأجر، تكون الأم قد أخرجتها إلى سلمى قبل ذهابها إلى المدرسة، تخرج سلمى إلى جاراتها البعيدات، تأخذ رؤى معها، عندما يسألها من رأى رؤى في حضنها، تقول: «إنها بنتي، بنت ولدي أحمد، أمها تشتغل في بنك داخل مسقط، وأبوها مدير في شركة معلاقات عامة، يُصحح كلامها قائلين لها «علاقات عامة»، يزورها الأربعاء، ويرجعوا عنها مسقط يوم الجمعة، مو أيسوي الواحد، هذا جوب الأولاد بو تو، الحرمة والرجال يشتغلوا، في زمنا ما كنا نشتغل خارج البيت، إلا إذا كنا في المزرعة، أو نرعى، أو نحطب. الحريم بو تو، وحده معلمة، والثانية في بنك، وغيرها ممرضة، وبو شيطان ياخذها هي وزوجها، مو أسوي خويه، مستبليه وصابرة عشان أحمد وحرمته..».

في بعض المرات تبكِّر سلمى في دخول بيت الملاح. إنها لا تعرف الوقت، ليس لها علاقة بالزمن الذي تأتي به الساعات، علاقتها به تكون من خلال ملاحقة ظل الشمس

الذي ينعكس على جدران البيوت في القرية. في المساء تكون ساعتها قد علِّقت في النجوم أو القمر إن ظهر. تستيقظ سلمى قبل الشمس، تشرب لبنًا وخبزًا، تأكل حبات تمر، تعدّ قهوة وتنشّط دماغها بفنجان أو فنجانين، في بعض المرات تخرج عندما ترى زوجة الملاح بملابس النوم. يحدث ذلك عندما تخونها الشمس، لحظة ممارسة لعبتها في رفع ظل الجدار مع بداية المتر الأول عند مستوى جدار بيتها.

أما زوجته يا بني فلا تخجل أبدًا، كم مرّة فتحت لي الباب وهي بملابس خفيفة؟ أنا وحدي أخجل يوم أشوفها بذك الملابس، بس أنتِ يا ماه لا تروحي من أول الصبح، أفضل تتأخري. ما رأيك أخذ لك ساعة وأضبط لك وقت رنينها؟ أخليها ترن سبعه إلا ربع، وأنا كيف عدت أعرف أسكِّر صريخها يا ولدي...

رن الهاتف، تلاشت سلمى من السراب المتأرجح أمام سيارة الغاز. رفع أحمد سماعته، كتب العنوان في خطوط عقله: الخوير، اللفة الثانية بعد اليوم السعيد، ثالث بيت على جهة اليمين.

راح يتبع العنوان الذي حفظه قبل ثوان، حرّك سيارته، أشعل سيجارته، وفتح مسجِّل السيارة. الآن يستمتع بالأغنية، بل يردد خلف المطرب، يشعر أن صوته ليس أقل جمالًا من صوت هذا المغني، أثناء انتشائه بترديد كلمات

الأغنية رن هاتف آخر، وقال جاء الرزق، دربك خضر أحمدوه.

رفع سماعة هاتفه النقال، أراد المتصل إسطوانة غاز، أخبره بالعنوان، رد أحمد أنا ما أستطيع أحفظ أرقام شوارع وسكك وأزقة، إما أن تصبر حتى أقف وأسجّل عنوان بيتك في الدفتر، وإما ترسل عنوان بيتك في رسالة.

رأته سيارة الشرطة وأوقفته، تلعثمت الحروف في الفم، وما كوّنت الحروف كلامًا لجملة تنهي المكالمة السابقة.

وقف.

سُئل عن رخصة قيادته، وملكية السيارة.

ـ ترى السيارة ما حالي. أنا فيها سائق.

ـ سلامات ماله وجهك؟.

ـ طايح في الخوير من فوق سيارة الغاز الكبيرة قبل أشهر.

أخذ الشرطي الذي نزل لتحرير المخالفة رخصة القيادة وملكية السيارة. رأى اسم مالك السيارة وسائقها مختلفين، تأكد من صحة كلامه، اقتنع الشرطي بكلام أحمد، مسترجعًا في صمته ما لهج به «ما بتستفيد من تحرير مخالفة، صح لو المبلغ يروح لجيبك، فلوس المخالفة للحكومة، وحكومتنا ما تزداد فلوس، أنا فقير، وأنت فقير، وربنا الله. كلامك صحيح، وعلى العين والرأس، لكن هذا

واجب. ترى حتى أنا واجبي أرد على كل متصل، وفي أي وقت. هذه وظيفتي وأريد أعيش».

بس مرة ثانية ركِّب سماعة خارجية داخل السيارة. إن شاء الله، واللي يقولها ما يضرب بعصا.

تحرّك أحمد للبيت. وصلته رسالة حاملة عنوان الرجل الذي اتصل قبل أن توقفه سيارة الشرطة.

(8)

نعم، أنا أحمد تفضل، معك مركز شرطة بوشر، نريدك صباح الغد أثناء الدوام الرسمي.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف، تعال مع الضابط، وسيخبرك بكل شيء.

ـ ومتى الدوام الرسمي؟ وأيش اسم الضابط الذي أذهب معه؟

الدوام الرسمي يبدأ في الثامنة حتى الثانية والنصف ظهرًا، ليس شرطًا معرفة اسم الضابط، عندما تأتي ستعرفه، تعال ولا تخف.

. . . يرى أمام عينيه زميليه اللذين يعملان بائعي إسطوانات غاز. ثمة ظلام كثيف، ضوء مصباح خافت ينزل من تحت إحدى نوافذ الطابق الثاني، ينزل الضوء ويتشظّى بياضه في الجدار، بعض الضوء يتساقط على رأس إسطوانة الغاز. هما الآن قريبان من رأس إسطوانة غاز نائمة، يحاولان قطع الأنبوب الخارج من عنق الإسطوانة، والسائر إلى أحد شرايين فرن المطبخ.

هدوء كثيف، نجوم مستيقظة تلعب مع السحب لعبة الغميضة، شابان يرفعان إسطوانة غير فارغة من عشها الأسمنتي الذي بني لها، يعلقها أحدهما في يده، يسير وتسير الإسطوانة جنب السائرين في هذا الليل، يقطعان الصمت بنقلات أرجلهما على البلاط الذي يعبرانه، الله وحده يعرف اسم الشابين اللذين ركبا السيارة التي سارت بأضواء نائمة في هذا الليل. كل البلاد كانت سببًا لأن يسعى هذان اللذان أخذا الإسطوانة النائمة من سريرها المفروش خلف المطبخ إلى سريرها الجديد جنب أخوات لها، ستعيش الإسطوانة المسروقة بين إسطوانات فارغة وأخرى مملوءة. كان الله قادرًا على انتشالهما من هذا المسعى، لكن يبدو أنه أراد رؤية الطريقة التي يتصرف بها جائعان في بلد غنيٍّ.

أما الآن فجميعنا متلذذ برؤية ما يحدث في مسرح زمن الألم، حتى النجوم في السماوات العلى تنصت إلى هسيس الصوت الذي يخرج من فمي اللذين غادرا بسيارتهما إلى حيث مركزهما الرئيس.

كذلك حال أحمد، إنه يفكّر في ما قد رآه أمام عينيه، وهو يشعر بلذة الخيال في الجدار الخلفي للبناية البيضاء، هكذا تحوّل الجدار إلى شاشة سينما، بقدرة مكالمة هاتفية من مركز الشرطة صار جدار البناية شاشة لتخيّل أحداث، لا يعلم أحمد إن وقعت هذه الأحداث أمام عينيه أم لم

تقع، لكنه يرى كل الأحداث والمشاهد ملتصقة بالجدار، كثيرة هي البنايات التي حوّلت جدرانها إلى شاشة سينما مجانية، لا أحد يرى ما يحدث في الجدران التي رأى أحمد فيها ما فكّر فيه. أفلام كثيرة أخذته إلى أبيه وأمه، وأخرى تأخذه إلى أحداث عاشها في قريته قبل أن يأتي إلى هنا، يرى أفلامًا محزنة، يرى دون أن يدفع تذكرة لدخول قاعة السينما. أفلام حياة الشارع العماني تُرى بالمجان، لا أحد يشتري تذكرة لمشاهدة فيلم، كما لا أحد يشتري بعض ما قد يلوكه في فمه إن كان الفيلم طويلًا.

هما يعيان أن هذا حرام، لكنهما يشعران برضا حيال ما يقومان به، هما يشبهان من يشرب البيرة ولا يترك الصلاة أبدًا. شارب البيرة يشعر برضا تام عن حياته إن أدَّى فروض صلواته، مع السرقة في زمن الأمعاء الخاوية والجيب الفارغ لا يوجد شعور بالحرام، وإذا ما سَلِم الناس من يد الجائع ولسانه فكل شيء مباح أمامه، السرقة في انتشال الشرف، وصراخ المعدة حلال حلال، هكذا يشعر أحمد في هذه اللحظة.

الممثلان اللذان يتابع أحمد حياتهما على شاشة جدار سينما الخوير راضيان كل الرضا عن أدائهما للدور المعروض في فيلم داخل رأس أحمد، بعد أن شعرا أن لا مفر من الموت إلا بسرقة إسطوانات الغاز من تحت البيوت النائمة في الليل الجاثم على بائعي الغاز.

يفكّر أحمد في زميليه وهو يتابع فيلمًا عن حياتهما، يسمع نصائحه لهما، يتردد صدى صوتهما حول أذنيه، يتذكّر رفضه الذي أظهره حول اقتراحهما «سرقة كل إسطوانة غير مقيدة بسلسلة من حديد».

إن عرف أحد ما نقوم به فإننا ننكشف أمام الخلق، إن الأمر مخز إلى حد كبير، بل يصل إلى السفالة، هل يعقل أن نبيع الغاز في الصباح، ونعود ليلًا لسرقته من المكان نفسه الذي أنزلنا فيه الإسطوانة؟! لا أنا لست معكما، إن أردتما فعل ذلك فافعلاه بنفسيكما، إني صابر على المهنة، أقتات بالكد والعرق ورشح الجبين. بالكد والعرق ورشح الجبين. بالكد والعرق ورشح الج. .

استيقظ أحمد على وقع ما ردد من كلمات في حلم غفوة أخذته بعد أن استراح من البيع منذ أول صباح هذا اليوم، فتح عينيه، تلاشى الفيلم من جدار البناية البيضاء التي أمامه، ما رأى الممثلين يسرقان، وما عرف من قال تلك الجملة التي رددها، هو لا يعلم من أين أتى بهذا الكلام الجميل. يفكر فيه. ويتباهى به مع نفسه «بالكد والعرق ورشح الجبين».

يصل إلى نقطة تجمُّع سيارات الغاز، ينزل من سيارته، بعد أن أرجعها جاعلًا وجهها إلى الأمام، يخرج لفافة تبغ من جيبه، يدعها في فمه، يذهب إلى أحد زملائه الذين ينتظرون مجيء زبائن ما صبروا حتى تصل سيارة

الغاز إلى أماكن معيشتهم. أدخل رأسه في كابينة سيارة زميله، سلّم عليه بحرارة، قبّل أنفه أنف زميله، فشعر الآخر بعمق المحبة التي يبادله إياها أحمد صارخ. قال له «ولع لي يا ود خالتي». أخرج الآخر من سحّاب السيارة المستريح تحت جهاز التسجيل «ولاعة». أوقد نارها في رأس السيجارة التي في فم أحمد. راح أحمد يشفط جسد السيجارة مثل ما يُشْفطُ فمُ العروس في أول ليلة من حياتها، لم يطلب زميل أحمد سيجارة، أغاضه برائحة التبغ الذي عطّر به جو الغرفة المكشوفة على عيون الخوير، أعرف أن لديك شهية لحرق الرئة والشرايين، وكل ما لن نستطيع رؤيته داخل بطوننا؛ لكني سأحرمك مثل ما حرمني الحظ اليوم من بيع أكبر عدد من إسطوانات الغاز الكبيرة للمطاعم والمخابز.

(9)

فوجئ أحمد برؤية أحد جيرانه في مركز الشرطة، حمدان جار سلمى وابنها في البلد، يتساءل أحمد عن السبب الذي أظهره الرقيب حمدان لحظة أن رأى أحمد، عدّة تخمينات تناثرت حول أفكار طرقت نافذة رأسه، يبدو أن التحية بشوق وإظهار معرفة بين أفراد الشرطة والمواطنين ممنوعة، أو أن حمدان يؤمن أن لا أحد يدخل مركز الشرطة إلا وهو متهم بارتكاب مخالفة قانونية أو أخلاقية؛ لذلك صرف النظر عن إبداء أدنى معرفة بأحمد، أم أن شكل وهيئة أحمد كانت سببًا في صرف النظر عن إظهار المعرفة التي تؤدي إلى ضرورة إبداء مساعدة ولو شكلية لتخفيف العبء الذي يحمله سائق سيارة الغاز أثناء شروعه في دخول مركز الشرطة، أم أن حمدان كان قد دخل إلى المركز قادمًا من تحت أشجار نخيل المركز غير البعيدة عن موقف سيارات المواطنين المراجعين لهذا المركز، يبدو أنه لم يحبّذ الكلام الكثير؛ كي لا تخرج رائحة دخان الغليون من فمه، خصوصًا وأن أهل القرى لا يحبذون أن يعرف أحد أنهم يدخنون السجائر في مسقط، أم أنه فعلًا لم

يستطع معرفة ملامح وجهي، خصوصًا وأنه منهمك في الحديث مع مواطنين كثر في نقطة استقبال مراجعي هذا المركز.

كل هذا ليس مهمًا معي، أرى الكثيرين في مسقط، لم يظهر كل الذين رأيتهم أدنى معرفة، الكل يتجاهلني كما لو أني مرتكب جرمًا أعاقب بالتجاهل بسببه. المهم أن لا يتأخر هذا الضابط الذي أراد مقابلتي لشيء أجهله حتى هذه اللحظة، أتمنى أن لا يتأخّر، عسى أن يحترم وظيفته، وأن يأتي بأسرع وقت ممكن، حتى هذه اللحظة أضاع مني ثلاثة زبائن، سبحان الله، لم يتصلوا إلا في هذه اللحظات، كأنهم يرون دمي يغلي باحثًا عن سبب مناداتي للمركز، أو أنهم سمعوا دقات قلبي وأرادوا أن يطمئنوا إلى حياتي. كل شيء جائز في هذه الدنيا، الحياة والموت جائزان، أن تتعذب جائز، أن تموت باستمرار جائز ومباح، بل مأجور من يسعى لتعذيبك، الحياة أرادتنا معذبين في الأرض التي نبيع لها الغاز. الحرام هو أن تعيش حياة عزٍّ وكرامة، أن تكون إنسانًا في هذه الأرض ممنوع، بل هذا هو الحرام الوحيد في هذا البلد، لا أريد شيئًا إلا أن أكون أنا، أكون كما أشتهي وأريد، أريد أحمد بن صارخ الغازي.

هلا هلا، نعم نعم، هو بعينه ورأسه سائق سيارة الغاز، تفضّل أخوي، سعر الإسطوانة الجديدة ثلاثين، وحالك بخمسة وعشرين ريال، بس أخوي أريدك تصبر

علي، أنا في الجراج الآن، عندي مشكلة في بطارية السيارة، بعد أقل من ساعة أكون معك، عادي ارسل عنوانك في رسالة أس أم أس، لا ما تخاف، مستحيل أنساك، بس أخرج من هذا الجراج وأجيك، لا خلاص البطارية راكبة، فقط أنتظر الهندي يأخذ فلوسه وجاينك، أقل من ساعة وجاينك.

هكذا صار المركز كراجًا، والضابط المنتظر هنديًا. كي لا أفقد الزبون الرابع؛كان لا بد أن أغيّر من وضعي القائم في هذا المكان، فإن قلت إني في مركز الشرطة لتنافر الناس منّي، كان لا بد أن أكذب قليلًا، الكذب حلال في مرات كثيرة، إن كان الكذب حلالًا في الحرب، أو في التقريب بين متخاصمين اثنين، فإنه أيضًا حلال في الرزق وفي الكسب من أجل تنفير وترويع شبح الفقر المتربّص بنا في شوارع الخوير.

ـ أين الضابط الذي طلب مقابلتي؟

أنا لن أنتظر أكثر من خمس دقائق بعد، يبدو أنه لا يعلم أني تركت رزقي في السماء، وأتيت لرؤيته، أكيد أنه لا يعرف أن ثلاثة زبائن فقدتهم منذ أن دخلت هنا، وأنا لست مستعدًا لفقد الزبون الرابع، إن تنازلت عن استبدال إسطوانة غاز فارغة بأخرى مملوءة فلن أتنازل عن بيع إسطوانة غاز جديدة، لن أدع من طلب مقابلتي أن يكون سببًا في أن أخسر خمسة ريالات فائدة في لحظة واحدة.

أخي العزيز بقيت دقيقتان ولم أر الضابط الذي ناديتموني لأجل أنه أرادني في موضوع أنا أجهله حتى الآن، وأنا خارج عنكم، فإن أرادني فليتصل عبر الهاتف مثل ما يفعل كل من أرادني في حاجة ما.

خرج غير نادم على عدم وصوله إلى سبب مناداة ضابط الشرطة له. يخرج هاتفه، يتفحص عنوان آخر رسالة وصلته، يفكر في أقرب طريق سريع يأخذه إلى آخر عنوان وصله، يعصر الشوارع وزحمتها في خلايا دماغه، ينتظر فرصة لدخول الشارع، يدخل، يقف في الجزيرة الصفراء التي في الشارع المؤدي إلى الوزارات.

الشارع هنا مزدحم، الرجال يتاجرون بالعقارات، المطلقات والأرامل يسألن عن تواريخ قرعة سحب أراضيهن في مسقط. إن المرور من خلف وزارة الإسكان يحتاج إلى قطع نقطتي إشارات مرور، ثم جسر يدخل الخوير، أما السير يسارًا فإن أمامك إشارات مرور مجلس الدولة، وإشارات جسر الخوير، إن المعادلة متساوية للوصول إلى الخوير القديمة، كل الطرق تؤدي إلى إشارتي مرور وجسر.

الحيرة قابعة في رأس سائق سيارة الغاز، إنه الآن في خط الوسط المواجه للكلمات الرخامية التي أمام باب المجلس، عيناه على العلم المرفرف من قبّة المجلس، إن القبّة التي في أعلى المبنى لا تشبه قبّة الصخرة التي في المسجد الأقصى، في المسجد القبة ذهبيّة وحولها آيات

قرآنية. أما قبّة المجلس فبيضاء محاطة بكاميرات مراقبة، هنا يكمن الفرق، تلك قبة في القدس الشريف، وهذه قبّة مسقطيّة، يتجمّع تحتها دجالون ومشعوذو مستقبل غامض، هياكل بشرية ما أريد لها الجلوس في منازلها كي لا تنتحر من أوجاع شيخوخة زحفت إلى الركبتين والعينين.

يصل الكلام محرّفًا، لكنه عبر الأفكار نفسها التي قيلت تحت شجرة البيذام، هكذا يقتحم الكلام الأفكار، فيدخل في جمجمة سائق سيارة الغاز، وهو يتذكّر آخر رحلة إلى القرية. هناك تحت شجرة البيذام التي تجمّع تحتها الأهل والجيران لأكل لحم العيد، خاض الشباب المغامرون في حديث خطير حول عدم مصداقية مجلسي الدولة والشورى، علّقوا في أغصان الشجرة كلامًا لا يقال أمام كل أحد، بل لا يقال إلا في يوم الحساب، التصق كلامهم بأوراق شجرة البيذام، ثم في آخر دقيقتين أمضوهما في بيت عيد العائد تذكروا العقيد راشد الذي يضحك على ما يقال عن أعضاء مجلس عُمان. صمتوا غير نادمين على كل حرف قيل في بساط شجرة البيذام الكبيرة. إنه الآن يتذكر ما قاله مغامرون ومقامرون بحياتهم لأجل أن يضحكوا على الحكومة في تنفيذ سياسة الإقصاء من الكراسي. «إذا بغيت تتقاعد وأنت وزير اسرق وهتودى لحفرة السنانير». سمع أحد كبار السِّنِّ هذه الجملة، وقال: «يا أولاد ما يلكم حاجة، كفوا لسانكم عن الجرجور، ترى إحنا وذقناه في الجلالي».

التمعن في فهم معنى ومغزى الجمل الثلاث الأخيرة أكّدت للسائق أنه تأخّر في اختيار الطريق الذي سيسلكه، فأجبر على سماع زفير أبواق السيارات التي خلفه. اختار قبل أن تأتي الإشارة الصفراء الطريق المؤدي إلى مجلس الدولة. قبل أن ينتهي سور المجلس بصق أحمد بلغمًا أخضر في الشارع.

قد يرى أحدكم أن بصاق أحمد في هذا المكان ما هو إلا تعبير عن رفض الواقع الجاثم على هذه الأرض، بينما أرى أنا أن القدر صادف ضرورة أن يبصق السائق، ليخفف بعض تعب الحنجرة التي تفطر بالتبغ والمنبهات. حتى أحمد لم ينتبه وهو يبصق في هذا المكان أنه يؤكد صحة التعليق الذي سمعه من أفواه الرجال، تحت شجرة البيذام ثاني أيام عيد الأضحى الماضي.

إنسان بصق أمام مكان سمع عنه كلامًا شائنًا ليس من الواجب علينا أن نؤول فعله سلبًا؛ لجعله في عداد الأشخاص الذين أحرجوا الوطن، مثل ما لا يجوز أن نستهجن ما قام به من فعل غير إرادي. علينا أن نحترم ما قام به، بل إن استطعنا تبجيل فعله فلنفعل، إن لم يأت يوم نلتقي فيه أحمد صارخ ونتعرّف إليه عن قرب فلنصفّق بكفينا مصدرين صوتًا عاليًا؛ تحية للذي بصق في الشارع قبل أن ينتهي الجدار الأبيض المقابل للجسر.

(10)

يقرأ الرسالة، يسير في الشارع على وقعها، يتبع الأرقام التي تفصل بين كلمة وأخرى، رقم الشارع الذي في يسار الدوار صار في رأسه، وهو الآن يسير فيه، تمرّ عليه بنايات بيضاء، ذات واجهات مغرية لوجوه نساء، بأياد يظهر الحناء عليها جميلًا، فساتين أعراس تغري النساء الجميلات اللاتي يعبرن هذا الشارع.

الآن يستبدل رقم الشارع برقم السكّة، يدخل فيها سائرًا بين بيوت جميلة، هنا في الخوير 33، المنطقة الجديدة، تلك التي امتدّ العمران فيها ساحبًا رمال بوشر يسكن مدراء عموم، ومستشارو وزراء ووكلاء وزارات، أصبحوا هنا بعد أن حُسِّنت أوضاعهم بفضل مراسيم صدرت قبل كتابة مسرحية قلب النظام بقوّة السلاح، فما كان من الحكومة إلا أن تواجه عجزًا في إكرامهم، حيث الشواطئ ضاقت بأصحاب الوظائف التي نزلت فيهم مراسيم ثمانينيات وتسعينيات القرن الكسيح.

في بعض المرات أجزم أن شخصيّة أحمد الورقيّة لم

تكن تعلم أن هذه هي حال المنطقة التي يسير فيها الآن، أكتب «أنا الراوي» هذا الكلام في اللحظة التي انعطفت السيارة البرتقالية داخل سكّة ضيّقة، أي إنها لا تتسع لأكثر من سيارة واحدة. استبدل السائق رقم السكّة برقم المنزل، بدأت العينان تقرآن الأرقام البيضاء التي في اللوائح الزرقاء الملصقة تحت أجراس المنازل.

انتفض بعد قرع الجرس من الوجه الذي خرج له. خادمة منزل خرجت وكان أحمد قد وقف أمامها ماسكًا الإسطوانة بأصابع يده اليسرى، ما استطاع الوقوف أمام الجمال الذي خرجت به الخادمة. لذلك ما كان إلا أن تدحرجت الإسطوانة من يده في اللحظة الشيطانية التي امتدت فيها أصابع يده مسلمًا عليها، وهي أيضًا فعلت الشيء ذاته، إلا أنها ضحكت على تدحرج الإسطوانة تحت السيارة، هو لم يبال بتدحرجها في تلك اللحظة، هذه هي المرّة الأولى التي تتدحرج من يده إسطوانة غاز، لكن هذا ليس عيبًا، فلا وجه للمقارنة بين سقوط إسطوانة الغاز وتدحرجها أمام عينيها، وسقوط عصا العماني المُسلِّمُ على جماعته في مجلس للعزاء. إن حدث انفلات إسطوانة الغاز وقع أمام امرأة لا تنتقد فعلًا كهذا، بل قد ترى أن هذا الحدث دليل عشق بائع الغاز، ويجعلها تؤمن أنها قادرة على الإيقاع برجال كثيرين، نحن لا نعلم إن كانت قد أوقعت بأحد فتية هذا البيت، أو بأحد آخر قبل أحمد،

لكن أحمد يكلِّمها، إذ استلم منها مبلغ الثلاثين ريالًا، وأرجع لها الريالات الخمسة، وهو يسألها عن اسمها، فأخبرته به، في حديث قصير أخبرته بعد سؤاله عن كفيلها، فقالت له إن كفيلها من «الرويال فملي».

ظهر من ملامح وجهه أنه لا يعرف أحدًا من الرويال فملي، وهو يعلم أن كلمة فملي إنجليزية تعني القبيلة أو العائلة أو الأسرة، لكنه كما يظهر الآن من وجهه أنه يشعر بارتياح بعد أن أعطاها رقم هاتفه، وهي دخلت إلى البيت، بينما هو دخل جوف سيارته، تحرك إلى مكان لا نعرف أين وجهته حتى اللحظة؟

يسير مسترجعًا في دماغه القبائل العمانية، يعدها بصمت، تلك التي يعرف منها بعض الناس، أو تلك القبائل المنحدرة من قبيلته الأصلية، مرت في ذاكرته كل القبائل، لكنه لا يعرف قبيلة الرويال العمانية أبدًا، يبدو أنها قبيلة من مصر أو السعودية أو الأردن أو فلسطين، يجوز أن يكونوا هكذا وقد تجنّسوا عمانيين. هذا ليس مهمًا، المهم أن أجيد التواصل مع «ساراتي».

ساراتي اسم جميل، لا أحد في عمان اسمه ساراتي، حتى أسماء الأندونيسيات جميلة، كثيرون جاءوا إلى هنا وتجنسوا، بلدنا لا يرد أحدًا، من طلب جنسية أعطاه، يعني لو أنا أروح الإمارات يجنسوني إماراتي مثلًا. يا الله فكرة

جميلة وحلوة، كلها سنة وأسوق لاندكروزر، أو لكزس دفع رباعي، أنزّل الغطرة على صوب، أجي عمان وأكفخ الشباب بعقالي، واحد وراء واحد، خاصة هلّ البلاد. لازم أستمرّ مع ساراتي، مسقط بدون امرأة متعبة، كل واحد بحبيبته، أنا الوحيد بدون امرأة، بدون صديقة تكلمني، وأكلمها، تخرج معي، وأخرج معها، تبادلني الهدايا وأبادلها، تشتري لي دبدوبًا، وأشتري لها دبدوبين، أمدُّ يدي إلى عنقها، وتحرّك شفتيّ بيدها، هكذا يحدث في اللحظات الحميميّة الأولى، أفتح زرّ لباسها، وتنزل يدها إلى الأسفل، أمدُّ يدي إلى نهدها، أمسك حلمتها، تنتشي وتخرج النهد كاملًا، أمسكه، وألعقه في فمي، أعض رأس الحلمة، تشتهي أكثر، تذوب وتخرج نهدها الثاني، تغمض عينيها، ترى أندونيسيا كاملة في سماء بوشر، أندونيسيا جاءت إلى عُمان، جاءت لتباركني، أنا أحمد صارخ الغازي أستمني كثيرًا على كل النساء الجميلات، أكاد أفقد الرؤية من شدة ما تخيّلت النساء الجميلات، أفرك قضيبي بين أصابع يدي، ثم تدمع عين رأسه.

في لحظات الهذيان وحلم تغيير الواقع المرير لم يشعر أحمد بسيارته أثناء خروجها من الشارع الذي تسير فيه، صدم إطارها الأمامي رصيف الشارع.

هذا ما حدث قبل دقيقة أو أكثر بثوان. لهذا وقف

أحمد، فتح الإشارات الأربع للسيارة، نزل، ولم يغلق بابه، ارتاح كثيرًا عندما تأكّد أن الإطار لم يصب بأذى، وحده الرصيف تعرض لأذى بسيط، «يغيب، هيصلح، الحكومة ما فيها الفقر عن تصلح شارعها، اللصوص والعيارين شبعانين بفلوسها، أما أنا وغيري ما محصلين شيء لبطوننا، يوم جت سليمة الحمد لله، إذا هذه البداية مع ساراتي الله يستر النهاية، أبوي سامح عن أفكّر في أحد غير الغاز، أو في تغيير هذي الشغلة الملعونة».

(11)

أوقف سيارته مثل ما تقف أغلب سيارات بائعي الغاز، الآن هي السيارة الأولى بعد المنعطف الثاني القادم من حديقة الخوير، لم ينزل من سيارته، يتأمّل أصحابه، عيناه على أرقام لوحات السيارات البرتقالية، يحاول عقد مقارنة بين الأرقام، فذكّرته بجدول الضرب في حصص الرياضيات، هذه المادة كانت سببًا في رسوبه، لم يستطع فهم المعادلات الرياضية، خصوصًا تلك المتعلِّقة بما في دروس الصف الأول الثانوي، يقرأ رموز لوحات سيارات الغاز، ذكّره حرف الجيم بدروس (الجا والجتا) في معادلات الرياضيات، تلك التي عقّدته ونغّصت عليه حصة الرياضيات، وهذا أوصله إلى كره المدرسة، إنه يعود بذاكرته عشر سنوات إلى الوراء، فإن كنا نحكي عنه في عام ألفين وستة للميلاد، فهو على ما ظهر من عدّ أصابع يده أنه أكمل عشر سنوات منذ أن رسب في مادة الرياضيات في الصفِّ الأول الثانوي، وهو في تلك الحسبة التي تحتاج إلى هدوء وصمت، كهدوء الطلاب في ساعة أداء الاختبارات عند نهاية كل عام دراسيٍّ مُنْغَمِس.

انتشله صديقه سعود من تلك اللحظات التي أناخت ركابها عند الصعوبة التي كان يواجهها في حصة الرياضيات، قال له يا ود خالتي أنا قريبًا سأترك هذه الوظيفة، وسأتركك وحدك تبيع الغاز، كيف؟ رد أحمد عليه. فقال سعود ليس الآن يا أحمد، لا تكن عجولًا أبدًا، بل لا تكن كالآكل لحمه نيًّا، سأركب معك في الأمام، وسأحكي لك ما جرى.

الحرارة التي تزحف إلى جسد الخوير تجبر الناس على إطفاء لهيبها بجهاز التبريد، سعود وأحمد داخل سيارة الغاز، إنهما لا يقلان عن الناس الذين يمشون والتكييف مفتوح، هما الآن مختلفان في أن سيارتهما واقفة، لم يتباطأ أحمد في إشعال سيجارة لرئته، إنه مستمتع بالحكاية، كما أنه متعجب، لكن ليس كثيرًا، حسب ما يظهر من ملامح وجهه، كأن كابينة السيارة بار ضيِّق في مدينة لا تنعس ليلًا، هواء التكييف يلعب بالسجائر، وأحمد يصدر صوتًا من شفتيه أثناء شفط دخان سجائره، يحرق رئتيه وشرايينه بصورة واضحة، فهو لم يجد أحدًا يعينه على حياة رفاهية في الخوير، صاحبه سعود ما زال يحكي له عن الرّجل الذي أحبّه.

«. . . والله العظيم، ما كنت أتصوّر أبدًا، بعد أن تبعت سيارة الهندي الذي جاء إلى هنا؛ لطلب غاز، لبيت ضخم بالقرب من إعدادية الخوير، أدخلت إسطوانة الغاز

إلى غرفتها الخاصة، خلف البيت كان المطبخ، تذكرت الواشر ورجعت إلى السيارة، وأنا أدخل رأيت رجلًا عمانيًا لابسًا دشداشة ومصرًا ومتهندمًا ورائحة العطر منتشرة في أرجاء البيت الكبير، ثم قال لي أنت يا ولد صاحب سيارة الغاز؟ قلت له نعم باه، قال لا تقل باه، أنا ما كبير، قلت له لا تصغِّر نفسك، قال مثلك أنت حرام أن يمتهن هذه المهنة؟ قلت له مجبور. قال لي بعد اليوم لن تمتهن هذه المهنة؟ قلت له كيف؟ قال بعد أن تنجح في الاختبار؟ قلت له أي اختبار؟ قال لا تستعجل رزقك.

سألني عن اسمي، قلت له سعود، قال يا الله فديت اسمك يا سعود، اسمك جميل يا ولد، وأنت أجمل من اسمك، قال لي بعد أن تركِّب الغاز ادخل البيت، قلت له ما يصلح أنا مستعجل، قال لا، ما تخرج ما شارب قهوة من معي، أنا فرحان بك، واللي أفرح به لازم يدخل معي، ودخلت يا أحمد، ما أن سرت داخل البيت جذبني جماله، كانت الصور الفنية معلّقة على مدخل البيت، والقطع التراثية التي في صالة البيت كادت تقلع عيني من جمالها، ومكتبة فيها كتب عديدة، في وسطها كتاب مصلح على العرش، قلت له ما شاء الله بيتك جميل، قال لي بوجودك صار جميلًا، لكن تأكد أنه ليس أجمل منك، بصراحة يا أحمد بدأت أشك، بل إني شككت وخفت، قلت إذن هذا الشايب حاب يركبني..

أحمد يضحك ضحكًا لفت به نظر زملائه من سائقي سيارات الغاز، أولئك المنتشرين جنب رواسكو الخوير. حاولت بما أوتيت من معرفة بالحديث أن أخرج العجوز عن مجرى حديثه وما استطعت، كلما قلت له إن هذه القطعة الأثرية جميلة، رد إنها ليست أجمل مني، كلما سألته أين التقطت هذه الصورة؟ قال لي في قلبك، رددت عليه قلبي ليس مدينة، قال لي قلبك وطن بأكمله، سألته عن نافورة الماء التي في البيت، قال إنها لي، قلت له شكرًا يا أبي، ثم سحبت كلمتي الأخيرة وعدلتها قائلًا شكرًا يا صديقي.

أحمد يبدي إنصاتًا إلى ما يسمع، وقد أخذه هذا الإنصات إلى إغلاق جهاز الراديو الذي يمطر الحكاية برذاذ خفيف لأغنية قديمة.

شكرت الرجل على حسن الضيافة، وقلت له يا صديقي العزيز أستأذنك، وقال لي حاشا وكلا، لا يخرج من دخل بيتي، فأنت آمن وفي محلِّك، قلت أعرف هذا، ثم قال لكن ما يصلح يا ولد، دخول البيت ليس كخروجه، قلت له سأزورك مرة ثانية، قال هذا ضروري، بل ثالثة ورابعة وعاشرة، وهذا شيء مؤكد.

سألني من أيٍّ ولاية أنا؟ لم أحدد له الولاية، قلت له من الباطنة، قال فديت أهل الباطنة، قال لي لا تقل إنك من صحم، قلت له بعدها مباشرة، طوال تلك

الجلسة يا أحمد كنت أتمنى أن يتصل بي أي زبون يخرجني من قصر عجوز الخوير. . .كنت أسأل الله، لكنه ما جاوبني، حاولت بكل الطرق، وبصراحة شديدة ـ وأرجو أن يظل هذا سرًا بيننا، وأن لا تُعلم أحدًا، ولولا معزتك لما أخبرتك، وقد أخبرته عنك بعد، وطلب مني أن نزوره في أي يوم تراه مناسبًا ـ بعد أن مدَّ يده نحو صاحبي استسلمت، وتأكدت أن الشايب مسكين، تركته يفعل ما يشاء، أدخل يده من فوق البنطلون، أخرجه ومسح عليه مرة ومرتين، نزل وبدأ. .

كنت أرى الدنيا في عيني صغيرة كالبعوض، ما هي إلا ثوان وتقيّأ الملعون، كرهته كرهًا شديدًا بعد أن تخلصت مما أملكُ، ولا أخفي عليك أعطاني خمسين ريالًا، أرجعت له سبعة وأربعين ريالًا، وزجرني بصوته قائلًا: عيب يا سعود، نحن أصدقاء ليس بيننا مبالغ، أوّل مرّة في حياتي أبيع إسطوانة بهذا المبلغ. . .

قبل أن ينهي سعود حكاية إسطوانة غاز قصر عجوز الخوير رن هاتف أحمد، ظل صامتًا يسمع ما يصله من كلام، أكّد أنه قادم بعد أقل من نصف ساعة.

(12)

كلمات قليلة لم تبن جملًا كاملة علقت في شعيرات رأس أحمد، أصابته المكالمة القصيرة بالخرس، نزل دون أن يتكلم، مع ذلك استأذن بإشارة من سبابته اليمنى، أفهمت الإصبع السمراء صاحبه أنه سيعود، مشى غير بعيد عن سيارته، سار مسترجعًا أحداث أيامه الفائتة، عادت ذاكرته شهورًا إلى الوراء، أوصلته الذاكرة إلى بداية عمله في هذه السيارة، بين تلك المدد تأرجحت الذاكرة، مرت عليه المظاهرة التي شارك فيها، حاول أن يتذكر الوجوه والأقنعة التي رآها في ذاك المساء، تذكر سقطته على الرصيف، والعلامة التي ارتسمت على خده الأيمن، أتت الذاكرة بالمرأتين اللتين هذى بهما، ساراتي الأندونيسية، والأخرى صاحبة أخيه الميت، لكن ليس من أمر قد حدث معهما ليناديه اتصال سريع طالبًا منه الحضور الفوري إلى قسم التحقيقات الجنائية:

ـ أحمد بن صارخ الغازي؟

ـ نعم.

ـ احضر فورًا إلى قسم التحقيقات الجنائية بالقيادة العامة.

انغلق الخط، واشتعل الرأس جحيمًا.

لم تجن الذاكرة ولا الذكريات موقفًا يحيله على التحقيقات الجنائية، ظلت شفتاه تتحركان، من يراه الآن وهو عند المدخل المؤدي إلى رواسكو سيرى آلام الدنيا يحملها وجه شاب وحيد.

عاد إلى سيارته، بعد أن غادرت سيارة صاحبه مكان وقوفها. في المكان سيارته وأخرى يظهر منها شاب منشغل بإدخال سبابة يده اليسرى في أنفه، يدخلها ويخرجها وبينهما يرى ما أخرجته الإصبع المنشغلة بإخراج أوساخ الأنف الجاف في المنخرين. رأى وجهه، ليس حليقًا بالطبع، أدخل أصابعه تحت إبطه، شم رائحة عرقه، ركب سيارته، حركها خارجًا من الخوير.

تذكر مركز شرطة بوشر، وسبب مناداته إلى هناك لم يعرفه حتى هذه اللحظة، مر عليه وجه حمدان، فكر أن يسأل عن رقمه ليتصل به، ثم قال لا سأذهب، ولن أتأخر عليهم أبدًا.

سارت سيارته في شارع السلطان قابوس، لم يصعد الجسر، أمام إشارات المرور رن هاتفه، ولم يردّ على المكالمة، تجاوز الإشارة، رن مرة ثانية هاتفه، قرر إغلاقه، قبل أن يصل إلى مقر القيادة العامة، ترك سيارته قرب بنك مسقط المواجه للقيادة، قطع الشارع. في البوابة

الرئيسة كابينة مغلقة بزجاج يفتح ويغلق كلما وقف شخص يسأل الشرطي الجالس على كرسي عن أحد أقسام الشرطة.

العرق يسير ببطء في وجهه، في الأعلى ثمة شمس نهار ساخط، وسيارات تسير دون أن يلتفت أحد إلى الشاب الذي يكلم الشرطي سائلًا عن قسم التحقيقات، دله الشرطي بإشارة من يده، ثم قال له لن يدخلوك إلا بالدشداشة.

سار يمشي بين السيارات الواقفة تحت المظلات، كانت عيناه تلتفتان إلى الأرقام الثنائية والأحادية، دخل البوابة بعد أن رأى رجلًا يخرج من مبنى قرب بوابة قسم التحقيقات، واجهه شرطيان خلف منضدة طويلة، قال لهما إن أحدًا اتصل به طالبًا إياه في أمر ما، أخذا اسمه، بحثا عن أحمد صارخ الغازي في دفتر أزرق كبير كان أمامهما، لم يجدا اسمه، سألاه عن اسم من اتصل به، قال لهما اسمه نور البلوشي، قالا له هذا في القسم الخاص.

- وين القسم الخاص؟

- اخرج من هنا، خذ يسارًا، واسأل عن اسم من اتصل بك.

مشى، دخل من بوابة زجاجية، واجهه رجل ذو مصر أزرق، ودشداشة بيضاء، سأله عن اسمه، قال له أحمد صارخ عذاب الغازي، طلب منه البطاقة، أخرجها، ثم

سلمه إياها، أمره بالجلوس داخل غرفة الانتظار، دخل ورأى كراسٍ زرقاء، وصورة للسلطان كانت معلقة في أحد الجدران.

جلس ينتظر، شعر بالبرودة، بحث عن نقطة غلق التكييف، وجدها لكنه لم يغلقها، ظلت عيناه تتنقلان من شيء إلى آخر، أسقط عينيه على أعمدة الكراسي، يصيخ السمع إلى الأصوات الداخلة للقسم الخاص، بين حين وآخر ينتظر أن يفتح أحد بابه المغلق، ملّ كثيرًا، مرت عليه المشاهد واحدًا بعد الآخر، هو حتى هذه اللحظة لا يعرف الأسباب التي أوصلته إلى هذه الغرفة الباردة، يشعر بصقيع، مرت ساعة وأخرى وخرج يسأل عن دورة للمياه.

خرج من الغرفة داخلًا دورة المياه، الممر نظيف ولامع، رائحة ديتول ومنظفات أخرى هجمت على أنفه، ظل يتأمل سحنته، غسل وجهه، خرج، استأذن ليشرب ماء من ثلاجة ينزل إليها الماء من علبة زرقاء، سأله الرجل الجالس خلف المنضدة قرب الدرج المؤدي إلى مكاتب أفراد القسم الخاص عن سبب مجيئه بالبنطلون، قال كنت في العمل عندما اتصل بي الضابط، وقال لي نريدك فورًا، وجئت بسرعة، ثم إني لا أملك دشداشة نظيفة.

حاول أن يطيل الكلام، أن يقول شيئًا آخر غير الذي أكد فيه أنه لا يملك دشداشة، إلا أنه أمر أن يعود إلى الغرفة الضيقة، تلك التي خرج منها قبل دقائق.

دخل، بدأ يزيح الإرهاق بالتفكير في أمه، ثم خطر في باله أن يقرأ ما يتذكره من آيات القرآن الكريم، استعاد السور القصار، قرأ بصوت دعاه يتردد بين جدران غرفة الصقيع البيضاء.

فُتِح البابُ، قال الرجل:

ـ أحمد الغازي.

ـ نعم أخي.

ـ تعال.

سار أحمد خلفه، يجر هزائمه، يسحبها شاعرًا بثقل قدميه. لم يدخل معه الرجل الذي أتى به إلى هذه الغرفة.

غرفة أخرى يجلس فيها أحمد وحيدًا، تخلى عنه الجميع وبقيت صورة السلطان ترافقه من مكان إلى آخر، في الممرات كانت صوره. في هذه الغرفة ثمة طاولة طويلة تتمدد كجثة جامدة في مشرحة، وأربعة كراس زرقاء تظهر للعين كشواهد في مقبرة، أحد الكراسي مرتفع كتلة طين في أرض يابسة.

جلس أحمد في ذاك الكرسي، عيناه في عيني صورة السلطان، شعرتُ أن أحدهما يشكو أمره للآخر، الصورة تحاول طمأنته، يسعى من في الصورة أن يفتح حديثًا مع أحمد، يوشك أن يقول لا تقلق، سأرسل لك شخصين رائعين.

فجأة دخل اثنان يرتديان دشداشتين، ومصرين

مختلفين في لونهما، جلس المحققان، طلب أحدهما بطاقة هويته، وبدأ ينقل منها البيانات في ورقة كانت معه، بدأت الأسئلة تنهال عليه من فم أحدهما كما لو أنها وابل من رصاص.

- ما اسم أمك؟

- صمت، ولم يجب، ظلت عيناه تحدقان إلى عيني المحقق.

- قل، تكلم، لا تصمت أبدًا، هذه معلومات سرية ولن يطلع عليها أحد.

- سلمى سالمين سالم عوض.

- كم عمرها؟

- ما أعرفه؟

- تقريبًا.

- يعلم الله متجاوزة الستين.

- كم عدد إخوتك؟

- ليس لي إخوة، وحيد ويتيم.

- من هم أصدقاؤك؟

- بائعو الغاز.

- أليس لهم أسماء؟

ـ لهم، لكنهم كثيرون، ولا أعرف أسماءهم كاملة.

ـ ما علاقتك بالخوير؟

ـ أعمل وأسكن فيها.

ـ هل تعرف سبب وجودك هنا؟

ـ لا.

ـ مستحيل، لا يأتي أحد إلى هنا، إلا وقد ارتكب جرمًا مشهودًا.

ـ والله ما سويت حاجة، ومستعد أحلف بالقرآن.

ـ راجع نفسك، حاول تتذكر جيدًا، ماذا فعلت؟

ـ متأكد، لم أفعل شيئًا.

ـ لماذا تتهرب مما فعلت؟

ـ قلت لم أفعل شيئًا، لم أسرق، ولم أقتل، ولم أغتصب..

ـ عمومًا أنت متهم بالمشاركة في مظاهرة وقعت قبل مدة طويلة، ولسانك طويل.

أخرج لسانه في لحظة قصيرة، لم يشعر بطوله، ثم قال:

ـ ما فهمت كلامك، كيف يعني لساني طويل؟

ـ أي إنك كثير الكلام، تتكلم دائمًا عن أحداث قديمة، وتهذي بها في جلساتك مع زملائك في الخوير.

ـ ما علاقتك بأحداث 2005م؟

ـ ليس لي علاقة، أنا واحد من الكثيرين الذين شاركوا في تجمع مسجد سعيد بن تيمور.

ـ لماذا تشارك في أمر لا يعنيك؟

ـ كذاك، شفت منظر الناس، شدني ورحت، ما خسرت حاجة، يمكن كل أهل مسقط حاضرين، كنا كما بو منتزق ومتفاجئ من شيء أول مرة يشوفه.

ـ لماذا تهذي بما حدث في كل جلسة من جلساتك؟

ـ بس، تخيل واحد حضر حرب، وأصابه سهم، بتلقاه يتحدث عنه كلما رأى جرح السهم في وجهه، يعني حبوتي أنا قبل لا تموت كانت كل يوم تحكي لي قبل عن أنام عن حرب زنجبار، وتقول تشوف ذا الجرح اللي تحت عيني، أقول لها أيوه حبوه أشوفه، تقول هذا اللي بقي لنا من زنجبار.. وأنا تو أقول هذه العلامة اللتي بقت لي من أحداث 2005.

ـ عمومًا نحن ناديناك لتكف لسانك عن ذكر ما حدث، دع الناس تنسى ولا تذكر شيئًا، ثم إننا ننصحك أن تنتبه لنفسك، وإن أردت أن تتعاون معنا، فنحن نريدك أن تكون معنا.

ـ كيف يعني ما فهمت قصدك؟

ـ يعني تشتغل معنا دائمًا؟ تدلنا عن أي معلومة تعرفها.

ـ مثل أيش يعني؟

ـ تفيدنا بمعلومات عن كل أحد تجلس معه. .

ـ بس ترى أنا ما أجلس مع أحد إلا مع بائعي الغاز.

ـ نحن نريد معلومات عن كل من تجلس معهم.

ـ ما أريد، آسف ما أستطيع أشتغل معكم.

ـ لماذا؟

ـ أبوي قايل لي قبل لا يموت ومعلمنا أن المخبر يوم القيامة في النار.

ـ عمومًا انتبه لنفسك، لأن أصحابك يشتغلون معنا. .

أعطي أحمد ورقة، طلب منه أن يوقع عليها، قرأها، لم يجادل قط، وقع تعهدًا بعدم المشاركة في أي مظاهرة، وأن لا يمس أمن الوطن، وأن يدلي فورًا بأي معلومة تضر الوطن والسلطان.

أخذ بطاقته، خرج من بوابة القسم الخاص، أقسم أن لا يخبر أحدًا عن دخوله إلى هذا المكان.

(13)

سار حذرًا، يمشي في السكة الضيقة، تلك التي تحاذي الحديقة والمحال التجارية، يسمع أغنية وطنيّةً، يحدِّث صمته قائلًا في سرِّه، هلكونا، تو داخل شهر يوليو، وعادوا يغنيوا لثلاثة وعشرين. . . . الله يلعنها من حكومة، حد جوعته وحد شبعته.

تذكر التعهد، وقف، فحص سيارته، لم يجد فيها شيئًا قد يسجل ما يريد به أن يعبر عن شعوره، لكنه الآن في حاجة إلى أن يقول ما يريد، يشعر برغبة جامحة في السب والشتم واللعن، أغلق نافذتي السيارة، سب وشتم ولعن، ثم قال: «أح، تو ارتحت، الحين أعرف أشتغل زين. . ».

وقف منتظرًا انتهاء السيارات التي تأتي من دوّار دوحة الأدب، ثم دخل الشارع، أخرج يده مسلمًا على الذي منحه فرصة دخول الشارع، قابله فندق رادسون ساس، سار في الجزيرة البيضاء التي في الشارع، انعطف داخل السكة المواجهة لشقق الخوير الفندقيّة، تركها على يمينه، رمى

سجائره، مشى قليلًا، عيناه على عنونة البيوت، يقرأ أرقام البيوت من اللوائح الزرقاء المحاطة بالشريط الأبيض.

صبية مراهقون استفادوا من مروره في هذا الشارع، ركض أحدهم إلى السيجارة المشتعلة، تلك التي رماها أحمد قبل قليل، استخدموها في إشعال سجائرهم التي اشتروها من دكان يبيع سجائر بالمفرّق.

وقف أمام أحد البيوت، ظلت عيناه تقرآن أرقام السيارات، الرقم ستة وستون، في أربع سيارات ألمانية، ستة وستون برموز مختلفة. لا بعد يقولوا أنه لا توجد أي واسطة في الأرقام الجديدة، على من يضحكوا؟ أي جهاز حاسوب أعطى هؤلاء ستة وستين برموز مختلفة، ألف، وباء، وتاء، وثاء، وجيم، وحاء. ومواقف سيارات رجال الشرطة كلها بأرقام أحادية وثنائية.

أخرج من جيبه ريالين، أرجعهما إلى الرجل الذي جاءه من هذا البيت مرتديًا دشداشة ملوّنة، مشت سيارته بين بنايات في سكة ضيقة داخل الخوير القديمة. ما مرَّ من هنا إلا ورفع عينيه إلى البناية البنية، هنا ترى عيناه طالبات كلية عُمان، من هذا المكان كانت أحكامه تنطلق عن الطالبات القادمات إلى مسقط للدراسة على نفقة أهلهن المقترضين من البنوك، وهو في مرات كثيرة يترك سيارته في مكانها، ويأتي راجلًا إلى الدكان الذي تنزل إليه طالبات الكلية عند العصر.

(14)

تهجم الأمطار على المكان بعشوائية مفرطة في القوة، قطرات ثقيلة من برد لم يُعْهد سابقًا، تتجمع الأمطار جنب السيارات البرتقالية المليئة بإسطوانات الغاز، تزحف في هذا الليل إلى الأجساد الغافية جنب السيارات، وتلك التي فرشت الكراتين الورقية لتنام بعد عناء تنزيل وترفيع، جسد شاب حنطي البشرة ينام فوق كرتون عليه علامة شركة مسجلة، من مرّ جنب الشاب النائم قد يخطر في باله أن الفراش تحت الجسد دعاية إعلانية لشركة أدوات إلكترونية عالية الجودة.

أمطار لا تتوقف، وإذا ما توقفت؛ فإنها تعطي فرصة ليخف الماء من الشوارع التي ترفض شرب الماء.

يخرج البشر رؤوسهم من شقق البنايات المجاورة لمسرح السيارات البرتقالية، يتعجبون من هول الشخير الذي يخرج من أفواه الغافين بأحلام ناقصة، قطط تنفض ما سقط من ماء على شعرها، كلاب تعدو نحو الجو الذي خف قليلًا، تحاول تجفيف الماء الذي أصابها في الساعة التي نزل فيها المطر.

في ساعة واحدة، أو في ثوان قليلة، أو في لحظة لا تتعدى رفة عين إنسان، حدثت كل هذه الأمطار. مياه شلّت الحركة في الشوارع، أصابتها في مقتل. لم يبق أحد في الشارع المقابل لبناية مقهى الفيشاوي، ولا الشارع المؤدي إلى دوحة الأدب، أضواء المحال التجارية تحرس الليل، الأسماء التي في لوائح المحال التجارية تتحدث عن كل شيء، تحكي لليل عن اليائسين والبائسين. وحده موظف محطة الوقود يسير متخففًا من النقود التي أخذت منه قبل انتصاف الليل.

كل الأحداث التي تم تخيلها لم يرها أحمد في واقعه، لكنه رأى في نومه المتقطع ما تمت كتابته في الأسطر السابقة.

يستيقظ خائفًا من فاجعة الأمطار التي ضربته في الحلم، يفتح عينيه على المكان، رأى أشياء كثيرة نائمة، البنايات، الشوارع، المحكمة، محطة الوقود، محطة سيارات الأجرة، بشر بملابس مختلفة، أشياء أخرى كانت تتثاءب ناعسة دون أن تضع يدها في فمها، المقاهي، أضواء الشارع، أضواء واجهات المحال التجارية، الحشرات، القطط، الكلاب، أشخاص يدخنون. وافدون يسيرون على بقايا ما قد علق من الليل.

وقف متمددًا على ما رآه في الحلم، أدخل يده تحت الكرتون، أخرج ولاعته، مط عينيه ليرى أصدقاءه الذين

غفوا في سياراتهم، أو جنبها. لم ير إلا اثنين منهم، وهو في هذا النوم لا يعرف من هم الذين ناموا جنب سياراتهم، أحد الذين حرسوا السيارات البرتقاليّة مشعل سيجارته، دندنة غير واضحة تصل إلى أذني أحمد.

إنها هناك، سيجارة تنير الظلمة القابعة داخل كابينة السيارة، صوت مطربة تبكي لليل بأغنية، بدا صوتها حزينًا، هكذا يصل إلى أذنيه «يا رب يخليك يا أمي، يا ست الحبايب، يا حبيبه، يا أغلى من روحي ودمي، يا ست الحبايب، يا رب يخليك يا أمي، يا ست الحبايب، يا حبيبه، وحبيبه، لو عشت كل عمري أوفي جمايلك. . . . .»

تنساب الأغنية من جهاز إحدى سيارات الغاز، يشعر أحمد بالفقد، ضُرِبت مشاعره بمطرقة، في مسمار داخل رأسه عُلِّقت ذكريات حزينة، راح يرى أمه في هذا الليل، إنها هناك، في حوش البيت، حيث كل شيء نائم في ذاك البيت، رؤوس نخيل تحرس حوش البيت، هواء يحرك أغصان الأشجار جنب باب البيت، شجرة الحناء الصغيرة، شجرة البيذام. الساعة الثالثة والأربعون دقيقة من فجر هذا الحلم. حلم أيقظه من فوق سرير الكرتون الورقي الخفيف، لم يشعر أن من في تلك السيارة قد رآه وهو مستيقظ، يبدو لهذا أيضًا أنه لم ير أحمد، لحظة أن زحفت إليه أمه النائمة في بيتها. لو أنه رآه وهو جالس، ووجهه جهة القبلة؛ لناداه بضوء السيارة، هذه الحركة يفعلها كل واحد أراد أن ينادي

زميلًا له دون أن يزعج الآخرين، حيث إن صوت أبواق سيارات الغاز مؤذ.

ينظر أحمد إلى إحدى السكك الضيقة، هنا حيث مر قطان، أحدهما خلف الآخر، سارا جنب البناية القريبة من بيتزا مسقط، راح القط الذي بدا أنه الأكبر يقفز فوق ظهر القطة الصغيرة، تناوشا وتناغيا بنغمات مرتفعة، ركضت وركض، وقفت ووقف خلفها، استكانت راضخة لتلك المحاولات، وراح يحث شبقه فيها، هنا وقف أحمد المستيقظ من حلم مطر لم ير منه أثرًا، ليشاهد ما يحدث أمامه في هذه اللحظة. اللقطة الأخيرة لم تدم كثيرًا، انقضى أمرها في ثوان قليلة، تبسّم ساخرًا من النهاية التي انقضت، سار القط والقطة منفردين، كأن شيئًا لم يحدث، لحظات حب لم يلتفت إليها سواد المكان. قبل أن يحرك رجليه من النقطة التي وقف فيها لحظة استدارته إلى الخلف ناداه ضوء سيارة برتقالية قريبة من سيارته، شعر أن أحد زملائه مستيقظ هو الآخر، خطا حتى وصل إلى من في تلك السيارة.

ـ خير حبوب، أيش نهضك؟

ـ ما أعرف، شفت أمطار قوية، تزحف كأنها تريد تسيحني.

ـ أيش أمطار، أنا أتهاطل عرق وحر، كأني في جهنم.

ـ ترى بعدها مسقط جهنم الدنيا، هنا الله يعمل فينا «تريننج» للآخرة، أعجبتني أغنية «يا أمي يا ست الحبايب» إذا عندك في شريط عيدها.

ـ جاءت في الإذاعة، وما طولت وأخذونا نسمع قرآن وأدعية قبل آذان الفجر، وبندته.

ـ يا أخي أسألك حالتنا بتتغيّر أو لا، كم سنة نشتغل وما ضولنا حاجة، بو نشتغل به دخنا به، وأكلنا به، وهريناه، تو كم سنة على ذي الحالة؟ عيشة كلاب، همنا نوكل، ما صار لنا غير هم البحث عن الأكل، ومنطبق علينا المثل «خدمتش بلقمتش، ونياكتش في سبيل الله..».

(15)

يقف أحمد مستندًا إلى سيارة الغاز، لا أدري ما الذي يتأمّله في هذه اللحظة؟ لكني أراه واقفًا، يرى ما لا أراه، يرى الأشياء ويتأمّل داخله، يرى البناية التي يراها، النساء يدخلن مكتبة للقرطاسيات المدرسيّة، وأخريات يخرجن منها حاملات أكياسًا ملوّنة، أكياس خضراء، وأخرى بيضاء، لا يظهر ما في داخلها لمن يرى المكان بما فيه، إلا أن عيني أحمد قادرتان على الغوص داخل الأكياس التي يخرج بها الناس من المحال التجارية بمنطقة سيارات الغاز، لا يعبأ بأغلب ما يأخذه الناس إلى بيوتهم، يشعر أنه غير قادر على الخروج بكيس واحد، يتمنى أن ترى عيناه ما يباع في تلك المحال، لم يدخل رواسكو مطلقًا، لذلك لم يحمل كيسًا واحدًا إلى بيته، هو يفكر أنه مستعدٌّ أن يضحّي من أجل وجوده في الحياة، بل لم يفكر حتى ليلة الثلاثاء في مغادرة الخوير، رغم أن الأنباء تخيف وتفزع من يفكِّر فيها جيدًا، بل إن أخبارًا مخيفة كهذه هي الأوّل من نوعها، وأحمد خائف من كل شيء، خائف من عدم رؤية أمه بعد اليوم، خائف من أن يكون ضحية حياة

ما اكتمل بنيانها، خائف على نفسه. يفكر في أي مكان سينام؟ وأين سيختفي؟ من القادر على إيواء إنسان بسيط كأحمد؟ وإذا ما عاد إلى أمه فإنه سيعود خالي الوفاض، لن يستطيع حمل كيس يدخل به على أمه وحيدة في بيتها، وإذا ما جلس هنا في مسقط عمومًا، أو في الخوير خصوصًا قد لا ينجو من الغرق. هنا الموت يحيط بكل شيء. الناس يحاولون ابتزازه بالتسوُّق الباذخ، وهذا ما لم يكن أحمد قادرًا عليه في هذه الأيام، إن مبالغ إسطوانات الغاز لم تعط أحمد فرصة يفكِّر بها في رؤية أمه.

مبلغ زهيد يعيش به على الأشياء البسيطة في مدينة لا ترحم البسطاء، مدينة تغري الفقراء باقتراض مبلغ لأجل حاجاتهم البسيطة، يحدث هذا للبسطاء، وأولئك الذين يبصق البنك في وجوههم نهاية كل شهر.

في الأكياس الخارجة من المجمَّع يحمل الناس مصابيح يدويّة، وبطاريات جافة، وكراتين ماء، وأكياس خبز.

وجوه وأشكال وأعمار الناس القريبين من سياراتهم أمام باحة المجمَّع مختلفة تمامًا، لا أحد يشبه أحدًا، تختلف الوجوه، وأبنية الأجسام البشرية، وتتشابه الأغراض المحمولة في تلك الأكياس، هذا ما رآه أحمد قبل غروب شمس الثلاثاء، في ذاك اليوم لم ترغب السماء في استقبال ضيفها، بينما كان واقفًا في رؤية ما لم نر

وصلته رسالة، فإذا بي أسمعه يقول: «يا الله بزبون طيب» يدخل يده في جيبه، لم ير هاتفه في جيب بنطاله الرياضي، يهرع إلى تذكُّر آخر مكان ترك فيه هاتفه، وها هي يده تدخل إلى السيارة، هنا حيث بداية الزجاجة الأمامية هاتفه غائص بين فوضى الأشياء الملقاة بعشوائية واضحة، ويفتح الصندوق الوارد. يقرأ رسالته صامتًا، خرجت أسنانه، وانفرجت أسارير وجهه قليلًا. عندما أطالت عيناه في الرسالة تذكرتُ أنه بطيء في فكِّ الحروف، ما زال يقرأ الرسالة، إما أنه يعيد قراءة رسائل أخرى قديمة، وإما أن الرسالة طويلة، الآن وقد رمى هاتفه في جيب بنطلونه الرياضي، سحب سيجارة من فوق أذنه، أشعل النار فيها من علبة كبريت كانت بين الأشياء المرمية تحت المرايا الأمامية لسيارته، أحد زملائه مرر عليه سيارته ممازحًا إياه، قبل أن يوقفها بمحاذاة سيارة أحمد، سأله عن الحال والأحوال؟ قال له أحمد:

ـ الأخبار إن غدا الأربعاء إعصار شديد، يقولوا من قوته بيهلك الزرع والضرع، يبدأ من صور، وبيمر على مسقط. والعمانيين هارين في ثيابهم، ما خلّوا شيء وما اشتروه، لا حائره ولا دائره، حولوا الدكاكين لبيوتهم، اللي ما متعوِّد على إعصار مصيبه. .

ـ أنا سمعت إن الأربعاء إجازة.

ـ كيف أنت تروح البلد أو بتجلس هنا؟

ـ والله ما أعتقد أروح.

ـ أنا ما حاب أروح، لكن خالي اتصل بي، وقال إن أمي ما راضيه عليّ إذا ما رحت، فإذا رحت عشانها. . بس جالس أفكِّر كيف أرجع البلد، وأنا ما عندي شيء آخذه لبيت الوالده، بل ما عندي ريال أصل به البلد؟!.

ـ آفا عليك ود خالتي أنا بعطيك، قبل ساعة حاسبت مالك الشركة، وصفيت بمائة وسبعة وعشرين ريالًا، أنت خذ اللي تريده من هذا المبلغ، ورجّع الباقي، إحنا كم أحمد معنا؟ وكم واحد اسمه أحمد صارخ عذاب الغازيٍّ ويبيع غاز؟ لا وبعد مشارك في أول مظاهرة، وهو أول ضحية يسقط على رصيف الشارع بعد مطاردة الشرطة، إحنا ما لنا غيرك يا ود خالتي، روح الحبيب ولما ترجع بنلتقي.

فُرِجت يا أحمد، ها أنت أخذت خمسة وعشرين ريالًا من صديقك سعود، الشاب الذي ناديته سعّود يفرج كربتك، وها أنت تقرر العودة إلى البلد، وها هم العمانيون يهربون من مسقط، وها هو شاطئ الحب يعصف به الموج. الإعصار يقترب من قلب شواطئ مسقط.

رأيتك يا أحمد في دوار برج الصحوة، في يدك كيس كبير أسود، أنت في الشارع تحاول ركوب سيارة خاصة، كثيرون مرّوا عليك وما وقفوا، لكنهم الآن يحدثون زوجاتهم عنك، يحكون لزوجاتهم عن سقوطك على رصيف شارع في الخوير الجديدة، واحد من أولئك الذين

مرّوا عليك قال لزوجته: هو ود سلمى راجع البلاد، أشوفه يوقِّف سيارة. . .

ذاك الرّجل الذي مرّ بِعليك وما وقف يحدِّث زوجته عن أمِّك. رغم أن الزوجة قالت لزوجها: لو وقفت لأحمد وأخذته معك، كنت سأركب في الخلف. هذا قاصر أنت في الخلف، وود سلمى في الأمام، وأنا أهلك برائحة الغاز، أنا أخاف على عمري لما أشوفه، أحمد كله غاز، حتى شكله صاير إسطواني، وإذا ركب معنا يمكن سيارتي تحترق. هكذا قال الرّجل لزوجته، وأنت يا أحمد ما سمعت ضحك ولديه اللذين في الكرسي الخلفي، وما رأيت تجهم وجه زوجته على ما قال زوجها من كلام ساخر، وإنها تردّ عليه قائلة العمل ليس عيبًا. .

(16)

في دوّار برج الصحوة عينا أحمد تصوّران الناس المسرعين على غير عادتهم، هكذا يرى سياراتهم عندما تنعطف عند الدوّار، صارت مسقط أسدًا ذا أنياب من صخر قاطع، وها هو الأسد سينقض على الناس.

الجبناء يفرّون بعد رسائل تعلن مؤكدة عن إعصار مداريٍّ يسمى جونو يقترب من شواطئ السلطنة: هكذا قال أحمد، ثم ردّ على نفسه: الله يسامحك يا خالي، بإلحاحك صرت جبانًا كالمسقطيين، والله حتى أمي ساهمت في أن أكون جبانًا، لكن يا الله ما عليه، ما دام معي خمسة وعشرون ريالًا زين أشوف البلد، منذ عشرة أشهر ما رحت، وبالمرة نشوف الوالده. . .

اقترب المساء، وصل أذان المغرب من المآذن حزينًا على مصير مسقط في الساعات القادمة، يدور أحمد على سيارات التاكسي، يسعى باحثًا عن سيارة تتحرّك إلى داخل عُمان، طوافه على السيارات يشبه من ينتظر وزيرًا على باب مكتب وزارته، يسير ماشيًا، ينقل كيسه معه أينما جلس، يشعل تبغ سجائره في الأمكنة التي يجلس فيها، إلا أنه

الآن واقف قرب باب سيارة المقهى المتنقّل، لا أدري ما الذي طلبه من النادل الهندي الذي في المقهى المتنقّل؟ لكني أراه ينتظر، يلوك الحروف في كلمات تموت داخل فمه، كلمات لا تُسْمع، لا أعرف ما الذي أراد أن يقوله لنا، إلا أنه يتكلّم وكأنه لا يتكلّم، نرى كل الكلام في فمه، نرى الكلام ولا نسمع شيئًا. إني أُفكِّر فيه، فما الذي سيقوله هذا العماني إذا ما مُنِح فرصة للكلام، هل سيجد فرصة قبل أن تميته الدنيا عن قول ما يريد؟

عيناه في السماء. سماء مسقط أكثر حزنًا على فراق أحمد لها، لذلك تبكي على مغادرته، كلاهما حزينان، السماء وأحمد أكثر خشية من المجهول، هو قد تركها، وهي قد أعلنت أنها على نية أن تفض بكارة غضبها على من هم تحتها، يحدِّث السماء، وتدخل معه في حوار، يتابع سير السحب، سحب سوداء كثيفة، تسير بسرعة إلى الشمال، تتجه نحو البحر، كأن بينهما موعدًا على غزو الأرض التي خانت عشاقها. يقف أحمد من جلسته التي كانت على الرصيف، يطفئ جمرة سيجارته في بقعة سكب فيها بقايا كوبه البلاستيكي الأبيض، وسمع صوت موت رأس السيجارة في السائل المدلوق.

سار، ووصلته رسالة من أحد حدد له موقع بيته والمنطقة، فهم أحمد كما يفهم دائمًا، وقرر غلق هاتفه، هذه هي المرّة الأولى التي يغلق هاتفه عن زبائنه، لم أره

غالقًا هاتفه منذ أن استلم العمل في السيارة التي أرجعها إلى مالكها قبل أكثر من سبع ساعات.

لم يكتمل النصاب الذي يمنح سائقي سيارات الأجرة السفر بزبائنهم، وها هو أحمد يعود إلى الشارع، علّه يجد أحدًا يقف له. الهواء يلعب بأطراف مصرِّه المرمي على رأسه، لا يعبأ بشيء أبدًا، أخشى عليه أن يقطع الشارع نحو الجهة التي تعيده إلى الخوير، هذا ما أخشاه في هذه اللحظة.

لا يا أحمد لا تقطع الشارع، لا تعد إلى ملابسك التي رميتها خلف كرسي سيارة الغاز، حتى إن تذكرت شيئًا نسيته فلا تعد إليه، أستحلفك بخالق الغاز في جوف الأرض أن لا تعود إلى تلك الحياة، إنك قلت أشياء لست راضيا عنها، إني أوافقك عندما شبهت حياتك بحياة الكلاب. لا تخش الانتظار، سيأتي أحد يقلّك من هنا، إن لم يأت أحد فستتحرك إحدى سيارات الأجرة، وستركب مع الذين يركبون أوّل سيارة تتحرك من هذا المكان.

أراه ينظر إلى ساعته، يراه الوقتُ ويضحك، يقارن بين الثواني الإلكترونية التي في يده، وبين نقلات عقارب ساعة برج الصحوة. لا يرعبك الوقت المتأخر في هذا المساء، ولن تخيفك مسقط، حتى إن خيّم الهواء البارد على مسقط ستضمك السيارة التي غفوت فيها في الدقائق العشر الماضية، لم يبق إلا شخص أو اثنان على صاحب

السيارة الصغيرة، إن لم يكتمل الأشخاص الأربعة في هذا الوقت، فسيكتملون بعد قليل.

.. . اكتمل العدد، وتحركت السيارة، سارت ساعتين. نام أحمد طوال الساعتين الماضيتين على وقع خوف عدم الوصول إلى القرية النائية.

(17)

نزل أحمد من السيارة، يسير من المحطة التي تأخذ من يقف فيها إلى منطقة الظاهرة؛ ليقطع الشارع نحو استراحة أخرى، شعر أن يديه فارغتان من الكيس الذي خرج به من مسقط. قال: «يغيب ما فيه شيء، وزارين وفانيله بيضاء، وحبوب بندول، وبليب أزرق أظنه عاد ما يشتغل، بس فيه رائحة المرحوم، وعلبة فازلين، يعني هذه الأشياء سترمى من أول ما يفتح سائق التاكسي الكيس».

ذلك الكيس كان ذكرى سنوات فهم فيها أحمد الحياة في مسقط، يبدو أن فقد ذاك الكيس سيبخِّر ذاكرته، لكن يومياته التي عاشها الجسد ودونتها الذاكرة في دفتر دماغه لم تدعه ينسى عذاب الأيام والأشهر في تلك السنوات الماضية.

الاستراحة التي جلس فيها مظلمة، غرفة صغيرة كقبر في صحراء، قوسان هوائيان على جانبي الاستراحة، على يمينه الشارع المؤدي إلى قريته، وعلى يساره بعد التقاطع الاستراحة التي نزل فيها. قبلها بأمتار لائحة زرقاء تشير إلى جهة الغرب، هنا حيث المسافة المحددة إلى ولاية عبري،

اثنان وتسعون كيلو مترًا، هكذا تعلن لمن أراد معرفة الطريق إلى الظاهرة، أو لمن يسأل عن المسافة المتبقية إلى منطقة الظاهرة للقادم من ولاية نزوى. أمامه المكان مظلم، أنوار خافتة تظهر له، سيارات قليلة، تكاد لا تمر إلا بين دقائق وأخرى تليها، وإن مرّت سيارة فإنها تمرّ مسرعة.

لا يظهر الخوف على أحمد، إن حاول الخوف اقتحام عزلته الليلية في هذه الاستراحة فإنه يخرج له دندنة شعبية، يحرّك لسانه في فمه، ينتصر على قبح الظلام برفع صوته، يغني للكيس الذي مر من أمام رجليه وهو جالس على أرضية الاستراحة. الهواء يدحرج الكيس الفارغ، وبعدها مرّ عليه كرتون خفيف وما وقف للسلام عليه، عبر به الهواء الذي يهب في هذه الدقائق إلى ضفة الشارع الأخرى، هناك حيث الاستراحة الأخرى المقابلة للاستراحة التي ينتظر فيها أحمد من قد يمرّ في هذه اللحظات. ذكّره هذا الكرتون بذلك الذي اتخذه بساطًا وسريرًا في الخوير، ها هي المدينة تلاحقه إلى هذا المكان المظلم، إنها غير قادرة على الاستغناء عنه، فتمرر له أشياء علّه يعود إلى قراره الذي نفذه في عجلة؛ خوفًا من إعصار قادم، أو إنه أناخ ركابه في الأمكنة التي سيطوف فيها.

ربع ساعة انقضى وما مرّ غير الهواء الذي حرَّك ما رمي جنب الشارعين، صوت ذئب يأتي من خلف الجبال، وأضواء بنايات الولاية تظهر من بعيد، السجائر دسها الفم

في الرئتين منهيًا ضوء شعلتها، لا شيء غير ريالات قليلة في جيبه، وهاتف أغلقه قبل ساعات معدودة.

لا شيء غيرك يا أحمد، ظلام ونجوم تلعب في السماء، رب يوزِّع أوراق اختباراته على الأرض، لا أثر لإعصار في هذا المكان، أصوات لليل مظلم، أصوات تأتي من خلف الاستراحة، وأخرى من جانبي واجهتها المقابلة للشارع، هواء يدخل في الفتحة التي فوق سطح الاستراحة، في هذه الدقائق يتزحلق الهواء من فتحة يفترض أن تزحلق الماء إذا ما نزل على سطح الأمكنة، يصفِّر الهواء صفيرًا مخيفًا، هذا ما يشعر به أحمد، وهذا ما يسمعه، يتخيّل الأرض التي خلفه، يرسمها في مخيلته، يرى أمامه مقابر قديمة، يتخيّل عظامًا رميمًا، يسمع مع الهواء عواء ذئب يأتي من خلف الجبال الحمراء، ذئب يُقطِّع عواءه في هذا الليل، يرسله من بين القمم الحمراء الشامخة، فيأتي صوته حزينًا على العناء الذي يعيشه أحمد. لذة النوم بعد العناء تغزو عالمه، يشعر الجسد بحاجة ماسة إلى النوم، يرتخي على عمود الباب المشرع للمنتظر في هذا المكان، يستسلم أحمد معلنًا موته في هذا المكان.

أنا لا أرى شيئًا أمامي غير جبال من الحزن في وجه أحمد، هذا الذي عاد ليموت في هذا المكان، هنا مات دون أن يصل، مات وما اكتملت حياته بأبسط أشيائها، مات وما عاش كما ينبغي، هكذا أرادت له الحياة، مات

نائمًا. لا ندري إن كان سيستيقظ أم لا، إذا ما استيقظ فإني سأكمل معه حكاية قصته. وإن لم يستيقظ قط سأعلن إنهاء هذه القصة. سأتابعه لحظة لحظة.

لا أملك المقدرة على إيقاظه، مات ليستريح من العناء والنكد، أو نام من التعب ليستيقظ على شمس تدق الباب المفتوح للاستراحة التي فيها جسده، كيف لي أن أعرف إن كان أحمد قد مات أم أنه نعس ليستيقظ من نومه باكرًا.

إني لا أراه، أتخيله وهو بعيد عني، أنا أعرفه مثل ما يعرفه الجميع، عماني أصيل، ابن عرب وناس وبني آدميين، خرج ليعمل وعاد ليموت هنا، أو لينام حتى تمرّ عليه سيارة ذاهبة إلى مكان ولادته وإقامته الدائمة.

أنا مجبر على حكي ما لا طائل فيه، كيف لي أن أتابع شخصية رجل نائم أو ميت؟ هذا المكان الذي فيه جسد أحمد شبيه بأمكنة كثيرة في بلدنا، هو مثلّث فيه تقاطع، يفضي يمينًا جهة الولاية التي ينتمي إليها أحمد ـ هذا ما ظهر عندما قرأت عنوانه الدائم لحظة سقوط بطاقته الشخصية على الأنترلوك الأحمر الذي تقف فوقه سيارات بيع الغاز في الخوير ـ ويسارًا يأخذك الشارع إلى دولة الإمارات عبر منطقة الظاهرة، وهي الدولة التي يحلم فيها أحمد بالحصول على جنسيتها، لأنه يعلم أنه لا يوجد مواطن إماراتي يبيع الغاز في العين أو أبوظبي أو دبي، وهو

دائمًا يقول: إن الإماراتيين لم يخلقوا من طين، دولتهم خلقتهم من مال فاحش الثراء، حيث يراهم بسيارات الدفع الرباعي الكبيرة، معتقدًا أن هذه السيارات هي من أملاكهم الخاصة، لا أدري إن كان يعرف أن مكاتب تأجير السيارات تؤجر بذات اللوحات الخاصة؟ وبذلك قد تكون تلك السيارات ملك شركات التأجير، لكنه في مرة قال إن حياتهم رهن للبنوك، ورد عليه أحد بائعي الغاز قائلًا: «وحياة العمانيين كلها للبنوك».

تقاطع كهذا يأخذك إلى مكانين مختلفين، وبهذا لا بد أن تكون فيه استراحتان لمنتظري سيارات الأجرة. تقاطع مثل الذي فيه أحمد في هذه الدقائق المتأخرة من هذا الفجر شبيه بتقاطع استراحتي الشويعي مصرون وإبراء عبر اتجاهي مسقط وصور، وهو أيضًا شبيه بتقاطع استراحة قرن علم شمالًا إلى ولاية أدم، وجنوبًا إلى صلالة. ألم أقل إن هذا المكان شبيه بأمكنة كثيرة في هذا البلد؟

مرّت سيارة على رجل نائم أو ميت. في السيارة لمحت ارتباك الرجل وسرعته البيِّنة، حيث أصدرت فرامل سيارته صوتًا قبل أن يواجه اللائحة الزرقاء التي فيها السهم المشير إلى جهة منطقة الظاهرة. ما أن ترى رجلًا يسرع في الليل، وبجانبه امرأة منزلة الكرسي إلى الخلف قليلًا؛ لتتمدد، يأخذك الشك في حالة المخاض التي تعيشها. لا أخفي أني لم أسمع آلام المخاض، لكنني دعوت الله أن

يعين المرأة على وصولها الآمن إلى المستشفى. آلمتني كلمة السائق، ما أن رأى أحمد متكئًا على حالته التي لا أعرف عنها شيئًا حتى قال: «أبناء الحرام سكَّروه ورموه في الشارع». كدت أقول له إنه ليس سكران، إنما الحياة التي عاشها في مسقط أودت به إلى هذه الحالة.

يزحف الليل مخرجًا مؤخرة وقته، يوشك الفجر على الاستيقاظ، ما مرت غير تلك السيارة، ومن صوت الفرامل ما استيقظ أحمد، لم تزعجه رائحة الإطارات، تلك التي محت مادتها سواد الشارع. صوت ديك غير بعيد من هنا. تحرّك أحمد وطرت من الفرح، صرخت بصوت عال إنه حيٌّ. صوت الديك أعادك يا أحمد، الديك والفجر صديقاك العزيزان، هما اللذان آنسا وقتك في البلد. سواد خفيف من بقايا آثار ليل جثم على الأشياء يوشك على الرّحيل، إنه الفجر يا أحمد.

ثمة حافلة قادمة من جهة الولاية، تهدِّئ من سيرها، تنعطف إلى الاستراحة التي استيقظ أحمد فيها، يمدُّ يده، فتقف الحافلة، ينفتح الباب، فيركب، سلّم على السائق، حدد له الجهة المقصودة. أعلمه أن ضوء الحافلة غير مطفأ، قال له إني خارج قبل الفجر من مقرٍّ شركتنا وقد وصلت الآن، وما انتبهت لها، رد أحمد أنا خارج من عصر أمس، ولم أصل بعد، ستصل بإذن الله، أقل من عشرين دقيقة وتكون أمام باب بيتك، أنت أين تريد؟

- الخوير.

سمع أحمد تلك الكلمة، مرت عليه الخوير بما فيها من جوع وضرب مبرح، وسقوط على أرصفة الشوارع، وبيوت وبنايات وبشر وأصدقاء وزبائن خدمهم أحمد طوال السنوات الماضية، ونساء جميلات لا يلبسن شيئًا تحت العباءة السوداء، طافت ذكريات سريعة ومشاهد من المنطقة التي عاش فيها، الخوير 33 بما فيها من أحداث مثلوها عليكم جميعًا. تذكّر ساراتي خادمة منزل أحد أفراد الأسرة المالكة.

- يعني ستعود إلى مسقط؟

- لا أنا ذاهب إلى خوير الظاهرة.

- هل يوجد مكان آخر اسمه الخوير غير التي في مسقط؟.

- نعم توجد، التي أنا ذاهب إليها منّت بنفطها على الخوير التي في مسقط. وهي إحدى مناطق النفط في عُمان.

- ومن أين يأتي طريقها؟

- طريقها يأتي بعد عبور قرى وأمكنة صحراوية، أو من خلف ولاية عبري.

- هل لي أن أجد عملًا فيها؟

- نعم، لكن التوظيف في الشركات النفطية التي فيها يكون من مسقط.

ـ أين مقرُّ شركاتها النفطية؟

ـ في الخوير أمام رادسون ساس، بالقرب من مطعم زهرة المدائن، في بنايات الحشميريين في الطابق الثالث.

انعطفت الحافلة ذات الركاب الأربعة والعشرين شخصًا إلى جهة اليسار، يمينًا نزل أحمد.

الآن يرى أحمد باب بيتهم، الباب الأخضر الكبير مفتوح. الساعة السوداء في معصم يده تجاوزت الخمسين ثانية، ما أن تصل إلى الثانية رقم تسعة وخمسين حتى يكون الوقت قد حلّ عند السادسة والخمس عشرة دقيقة من صباح الأربعاء الثامن من يونيو عام ألفين وسبعة للميلاد.

دخل البيت، وما وجد غير رائحة أُمِّه. في حوش البيت إناء زجاجي، في قاعه قطرات قليلة متبقية من لبن محلِّيٍّ، بهارات وزعتر على حواف الإناء الزجاجي الأبيض، بالقرب من هذا الإناء حبات من تمر فرض، ودلة قهوة متروكة للذي قد يدخل البيت مسلِّمًا على سلمى. دخل بيتهم كغريب أمام باب دار يدخله للمرة الأولى.

كان قد علم قبل خروجه من مسقط مساء أمس أن الأربعاء إجازة طارئة منحت للشعب مكرمة. في داخله قال «كل شيء مكرمة، النخيل التي في الشوارع مكرمة، زيادة الرواتب مكرمة، الشوارع المسفلتة والمضاءة ليلًا مكرمة، الوظائف والإجازات مكرمة، حتى أنا أشعر أن وجودي هنا مكرمة».

تذكره لمكرمة الإجازة أكّد له أن أمه في هذا اليوم قد لا تكون في بيت الملاح الزعبي، إلا إن كانت الإجازة لأهل المناطق البحرية، هذا ما يفكر فيه أثناء محاولة إيجاد مفتاح الدهليز، بحث عنه في أماكن كثيرة وما رآه، كانت أمه متعودة تركه في فتحات الطابوق المواجهة لباب البيت الرئيس، وهو لم ينس آخر مكان وجده فيه، فرفع الحصاة التي رآها على أحد الجدران لكنه ما وجد المفتاح، أحس أنه ليس في حاجة ماسة إلى دخول البيت مثل ما هو في حاجة إلى رؤية أمه، وهذا ما دعاه للخروج من البيت، سار إلى خلف بيتهم، هنا مزرعة خاله، في بعض المرات تكون سلمى مع أخيها، تساعده كلما طلب منها معونة في المزرعة، يسير جنب الشبك، بين السواقي المتلطخة بالطحالب الخضراء، يمشي ويغني، يغني ويرفع رأسه في نخيل خاله، في بعض الأحايين يرفع سعف النخيل، يمشي مثل كلب بوليسي يحاول إيجاد المشتبه فيه في موضوع سرقة، يسعى للوصول إلى أمِّه أو حتى إلى رائحتها، أو أي أثر لقدميها المتشققتين، يتمنى أن يراها ليقول لها قد جئت لأثبت لك أني معكِ في كل الأزمات، تركت الخوير وجئت للمبيت معك ولو لليلتين، يعيد رد أمه متخيلًا أنها ترفض عودته إلى مسقط «أشوف هرّة الخوير ما فادتنا بحاجة، ولا تغيّر شيء معنا، ليس لك عودة لمسقطوه بعد اليوم، لو الله ما غاضب عليهم ما أرسل لهم إعصار، هاذك هي مسقط يغرقها الله الآن

بغضبه، تو ود عوشوه راجع من منتصف الطريق ما رام يدخل مسقط، وأنت أيش وازنك يا ولدي، مائة وعشرين اللي تعطيك إياها مسقط موجودة هنا في البلاد، خذ لك تنكر ماء أعز وأشرف عن خنث مسقط..».

يواصل دلق الكلمات بلغة أمه عن مسقط، يعيد الصورة الذهنية المتخيلة عن مسقط في عقول العجائز، أولئك العجائز اللاتي عشن مخضرمات بين عصري الأب وابنه. أمه ترى أن مسقط ما هي إلا وكر للفساد، ما ذهب إليها شاب إلا عاد عجوزًا يحيط به الفقر من جهاته الأربع، في كل عيد ومناسبة ترى فيها الفتيات المستوطنات لمسقط وتنتقد ملابسهن، تشبههن بالنساء المتبرجات اللاتي يظهرن في المسلسلات في شاشات التلفاز.

يمشي ويسمع صوتًا، إن أحدًا ما يناديه، تأتي الكلمات التي ينادى بها متقطعة من بين أشجار نخيل متقاربة، أ ح م د.

يتفتت الصوت، يصل صدى الكلمة بحروف متقطّعة، يحاول معرفة الصوت، إنه صوت رجل، وليس صوت أمّه، الذي لا يقل في حدة نبرته عن صوت الرجال، ثم من بين أحد جدران البيت الذي على طرف المزرعة رأى وجه خاله، توجه إليه، سلّم عليه بيديه الاثنتين، دخل إلى بيت خاله، هناك وجد أمه، وما أن التقى الشتيتان حتى زغردت النساء المتجمعات حول التلفاز، عانق أحمد أمه، وقبّل

رأسها قبلة طويلة حانية، وهو في هذه القبلة يرى ابنة خاله، يكاد يقول لها إن رضيت بي زوجًا سأقبّل رأسك هكذا.

العائلة متجمعة حول التلفاز، منذ ليلة البارحة يعيد التلفاز صور نقل إخراج أهالي جزيرة مصيرة، ثمة عمانيون يأتي بهم التلفزيون وهم داخل مآوٍ، يتحدثون عن المكرمات وأفضال الحكومة، وكيف أنها انتشلتهم بطائرات وعبّارات عصرية شخصًا شخصًا، خرجوا من بيوتهم الهشة مزودين بمؤن تعين وجودهم داخل مدارس أفرغ الطلاب والطالبات منها. هذه فرصة ذهبية لا تعوض أبدًا، وقد منحها الله لحكومة السلطان بعد عجزها عن قتل وحش الغلاء الذي نكّل بالعمانيين، متحججة في إعلامها أمام مواطنيها أن هذا الوحش يجوب العالم أجمع. إنها فترة وجدها الأمن فرصة مناسبة لتحسين صورته أمام المجتمع بعد الضرب العنيف الذي قوبل به مواطنون محتجون على المسرحية المجهولة المؤلِّف.

إنّي أسمع في هذا الليل رجل شرطة المهام الصعبة يكلِّم فريقها «سيدي تلقيت مكالمة تفيد أن جسر شاطئ الحُبِّ قد تكسّر وأحاله الماء إلى شظايا صغيرة». بينما كان الفريق منغمسًا في تأمُّل تجاعيد شيخوخته من وجه المرآة العاكسة قال: «الحمد لله هيخف الخنث».

ضحك أفراد الشرطة ضحكًا أجبر الفريق على مشاركة أفراده في الضحك، يبخِّر ديكتاتور الشرطة غرفة برج مراقبة القيادة العامة بتبغ غليونه.

(18)

إنه عصر الأربعاء، فيه السحب متناثرة في دوائر زرقاء، بعضها مختلط ببياض واضح وظاهر، الجو مزيج من هواء بارد وحارٍ، يحار المرء في تحديد ماهية الوقت دون ساعة. الأفق خليط من غبار وسراب. يحدث هذا في الأيام المقبلة على صيف حارٍّ يقتل العصافير المحلقة من غصن يابس إلى آخر محترق.

ارتدى الوقت قبّعة الشمس ليخرج بها على الناس.

أحمد في المكان الذي يؤخذ منه الماءُ إلى الناس في القرية، ناقلة الماء الزرقاء تنتظر دورها، بها خرج أحمد من بيت خاله، كانت أمه في شكٍّ من رجوعه إلى البلد، مع ذلك ذهبت بعد الغداء إلى بيت أخيها، أخبرته أنها تتمنى مساعدته في طلب عمل لأحمد «لازم يشتغل في نفس يوم وصوله، عسى يحب العمل في البلد، أريدك يا أخي تسمح له بالعمل مع الشباب في مشروع نقل مياه الشرب إلى البيوت».

منذ أن سلّم على الشباب في محطة المياه صار منهم، بسرعة عجيبة اندمج معهم، شعر أنه واحد منهم،

كما لو أنهم الشباب أنفسهم الذين باع معهم الغاز في الخوير، كان بعضهم يعرفه من قبل.

بدأ معهم بالمزاح من اللحظة التي رآهم يتمازحون فيها، نكات وكلام بذيء يخرج من أفواههم، فيهم من ينادي الآخر باسم أمه، ود جوخة، ود سليمة، ود عائشة، هكذا ينادون بعضهم بعضًا، تجرأوا عليه بعد أن نادى زميلًا له بابن سليمة، يا الله ود سلمى تجهز دورك قادم.

حرّك سيارة نقل المياه الصالحة للشرب، قدّمها قرب خرطوم المياه، رغم أن الناقلة التي أمامه مازالت في مكانها، لم تتحرك بعد، الشاب واقف فوقها، عيناه مغروستان في فتحة الحافلة التي يدخل منها الماء، ويداه فوق الحنفية التي ينزل منها الماء إلى الحافلة «يا الله الحبيب يكفيك، إذا امتلأ الخزان سيفيض بعد أن تمشي». هذا ما قاله أحمد لزميله في العمل الجديد.

جاء دوره، سار بالحافلة تحت الأنبوب الضخم الذي ينزل منه الماء، لكنه تقدم أكثر مما ينبغي، ناداه أحدهم أن يرجع قليلًا. رجع أكثر مما ينبغي، ثم قال له صاحب الحافلة التي خلفه تقدم قليلًا، تقدم خطوات ثم سمع كلمة «بسّك» فوقف، أغلق محرك حافلته التي يقودها للمرة الأولى، قفز سريعًا إلى سطح الناقلة، فتح صنبور الماء، بدأ يتدفق كشلال في بطن الحافلة.

نزل إلى حيث الجالسون لانتظار دور ملء ناقلاتهم.

تأمّل زملاءه وهم يلعبون الورق. منغمسون في لعبتهم، لا يلتفتون كثيرًا إلى من حولهم، عيونهم على الأرقام التي على الأوراق الموزعة فيما بينهم. كانوا يتحدثون عن المياه التي أغرقت مسقط ليلة أمس، أحمد يسمع حديثهم، طلب من أحدهم أن يرى المقطع الذي مرّ على عيونهم من شاشة هاتف تناقلته أصابع الجالسين على بساط تحت شجرة تشرب كثيرًا من المياه التي تفيض من الحافلات.

المياه تقتحم الشوارع والبيوت، الناس في هلع وخوف، أطفال في قارب يعبر سككًا وأزقة بين بيوت في إحدى حارات مسقط، سيارات مدفونة أمام بيوت متهدمة. هذا ما التصق من المقطع الذي تابعه أحمد في ثلاث دقائق وسبع وخمسين ثانية، أثناء انغماسه في متابعة ذاك المقطع خشع قلبه من هولِ ما رأى، شعر أنه خان أعزَّ أمكنة في حياته، يغزوه الندم على ترك المكان وحيدًا، حزنٌ يغوص متوغلًا داخل أعماقه، في تلك اللحظات غاب بفكره نحو أصدقائه، رأى المكان الذي عاش فيه، تخيل الأمكنة مقفرة إلا من الماء يهدد تفاصيلها، سافر خلف ذكريات الأصدقاء الذين ما تركوا مسقط تغرق في الماء، يشعر بالخيانة والعجز عن كل شيء.

صرخ سائقو ناقلات المياه، استيقظ أحمد من خياله الذي أراه مسقط الغارقة من هول مياه الإعصار، اعتلى ناقلة المياه، سريعًا غلق الماء عنها، نزل إلى مقود الحافلة، راح يحث الخطى إلى بيوت أُعْلم بدورها لملء

خزاناتها في هذا اليوم، يقود متذكرًا سيارته التي باع فيها إسطوانات الغاز، هناك السيارة خفيفة، وهنا ثقيلة، هناك حُرِّية في اللباس الذي يلبسه سائقو سيارات الغاز، هنا يلبسون الدشداشة العمانية، هناك ترى النساء في سيارات جميلة، هنا الرجال يقودون سياراتهم بأشكال مقرفة، مسقط جميلة بمياه البحر، وهنا الأرض قبيحة بالعطش، هناك النخيل خضراء، وهنا كأن أحدًا أشعل نارًا في قممها، هناك الأمكنة تصرخ من هول المياه التي سقطت عليها من سحب السماء، وهنا الناس يصلون استغاثة لأجل رؤية السحب إن تعذرت المياه للأرض.

يسير في شارع لا تحفّه الحشائش من جانبيه، لا إشارات مرور تنظِّم حركة السير، ولا أعمدة إضاءة تحرس الليل، هكذا تقفز الأشياء إلى دماغه، وهذا ما يقوله في لحظات الصمت الهادئة، لكن المقطع المصوّر الذي رآه عن مسقط وهي تصرخ «وآغرقتاه» أنساه المنطقة التي فرض عليه تزويد خزاناتها المرفوعة فوق سطوح المنازل بالمياه، حوّل وآغرقتاه، إلى وآآحمداه، صارت مسقط زهراء السقطرية، ورأى نفسه الصلت بن مالك.

نسي أي حلّة في هذه القرية صار مسؤولًا عن ملء خزاناتها بالمياه. أخرج هاتفه، بحث عن رقم خاله، ما وجده في ذاكرة هاتفه. امتعض من نوعية هاتفه، لو كان هاتفه مثل ذاك الهاتف الذي شاهد من شاشته المقطع؛ لوصلته من مسقط مقاطع كثيرة من المياه التي تغرقها، خانه

هاتفه، الشبكة في مسقط مقطوعة، لا يعرف مصير من جلس هناك من بائعي إسطوانات الغاز.

صديقي العزيز «سعّود» هل ذهب إلى بلده؟ أم أن مياه مسقط أخذته مع من أخذت؟ خصوصًا وأنه سمع أن عددًا كبيرًا قد لقي حتفه، في الوديان، وتحت الجسور، سيارات غرقت، بشر مفقودون، أخذتهم المياه غذاء لحيتان البحر.

ما أن وصل إلى هذه المنطقة التي تأتي مباشرة خلف المستشفى الذي في هذه الولاية أو القرية التي يعيش فيها أحمد إلا ورأى البيت الذي عرفه من موقف خاص للسيارات، أرجع سيارته إلى الخلف، مدّ أنبوب ناقلة المياه إلى فم أنبوب آخر يخرج من روح الخزان، أدار ماكينة سحب المياه، بدأ بمحاولة الاتصال بشباب عاش معهم فترة كافية للخلود في الذاكرة.

الهواتف التي حاول سماع صوت أصحابها تعذرت عن أداء مهامها، بين تلك المحاولات المستمرّة خرج الرجل الذي يملأ أحمد خزان بيته؛ ليسلم عليه. اقتنع أحمد بفكرة دخول شرب فنجان قهوة من بيت هذا الرجل بعد أن بدأ حديثه الذي استفتح به عن الإعصار، دخل متأمّلًا رؤية صور الدمار الذي لحق بمسقط، ولو عبر شاشة التلفاز.

في عرصة البيت جلسا تحت المظلّة التي على يمين الباب الرئيس.

أخرجت عاملة المنزل مروحة كبيرة لتبرِّد حرارة هذا

الوقت، مُلئت بالمياه، مُدَّ سلكها الكهربائي إلى إحدى النقاط الملتصقة بالجدار، بدأت المروحة الكهربائية تحرك أجنحتها لتأتي بهواء بارد ورذاذ خفيف على وجهي الرجلين الجالسين في البساط؛ لانتظار ما سيأكلانه معًا، سأل مالك البيت أحمد:

- هل تابعت أخبار الإعصار؟

- لا.

- يقولون إنه خلّفَ ضحايا كثيرة.

- من قال؟

- سمعت الناس في المسجد.

- لا تصدق، في التلفزيون يقولون إن الأموات خمسة أشخاص.

- صدق كل أحد، إلا التلفزيون لا تصدقه أبدًا، إذا قالوا خمسة، زد صفرًا أمام الخمسة.

- يقولون إن الحياة ميتة في مسقط، لا ماء ولا كهرباء، قد أذهب يوم الجمعة.

- مع من؟

- بنفسي، في سيارتي.

- لماذا؟

- لمساعدة أهلنا وأصدقائنا فيها.

ـ هل تسمح لي بمرافقتك؟

ـ نعم، تفضل، أنا أبحث عن أحد يرافقني.

ـ إذن نلتقي بعد صلاة الجمعة مباشرة.

ـ وهو كذلك.

فاض الخزان، قفز أحمد خفيفًا كطفل من البساط الذي شرب منه القهوة، وأكل فيه خبزًا عمانيًا بالعسل، أخرجته خادمة المنزل من داخل البيت.

حبيبات المياه الساقطة من الأنبوب المتدلي من الماكينة تقتفي أثر إطارات ناقلة المياه الزرقاء ذات الستة مائة والخمسين جالونًا، في المرآة الأمامية الكبيرة تصل مسقط غريقة من الإعصار، يسمع أحمد أنينها، يتأفف من ذاته القاصرة عن فعل شيء تجاه مدينته التي علمته الكفاح والصبر، يحاول سماع صوت من في مسقط، لكن شبكة الاتصالات هي الأخرى غارقة بين مياه يتخيل أنها دمّرت كل شيء جميل في مسقط، تصله الخوير مشوهة، هذه هي الصورة المرتسمة في ذهن مدمن الخوير. ينتظر الساعات القليلة القادمة التي بعدها يتمنى أن ينتشل الخوير من مياه أغرقتها. يعيد حديثًا سمعه في بيت الرجل الذي أدخله لشرب قهوة عن الإعصار وما فعله بالأحياء السكنية وبالممتلكات العامة، وبالناس في مسقط.

(19)

تجتهد السحب التي استيقظت هذا الصباح في إغراء أحمد بعدم العودة إلى مسقط، رغم أن نفسيته جاهزة للعودة، وهو شبه مستعد لها، لكنه حائر في الطريقة التي بها يسلِّم حافلة نقل المياه إلى خاله؟

بدأ صباحه بتحريك ناقلة المياه من مكان وقوفها إلى مضخة المياه. لم ينس الحمام والعصافير البرِّية التي شاهدها تشرب من المكان الذي يسحبون منه الماء إلى البيوت. عصافير جميلة ذكرته بتلك التي كان يصطادها مع صديق له مات في فراشه بسكتة قلبية، طيور مهاجرة تعرف باسم العقعق، تعبر بلدته بين شهري إبريل ومايو، إلا أن بعضها القليل يكون قد تاه في الرحلة، وقد يصل إلى نقطته التالية متأخرًا عن تلك التي استعجلت الهجرة هربًا من حرّ الصيف، طيور تقطع قارتي آسياء وأفريقيا، هو سعيدٌ بأن جعلت هذه الطيور بلدته راحة لرحلة عبورها بين الأمكنة.

السكتون الذي اشتراه صبرا وهو في السابعة عشرة من عمره أخذه معه، تركه خلف كرسي ناقلة المياه، سيارات

عديدة وصلت قبله، ثمة انتظار حتى يأتي الدور، فأخرج سكتونه.

لا إنّه ليس سكتونًا كما أراه الآن أمامي، طلقاته صغيرة مثل حبات الأرز الهندي، مثل هذا الطلق الناري يسمى «كسرًا» في هذا المكان، وهو ليس كسرًا تقليديًا أصيلًا، إي إنه ليس من صنع «الجير مني» يبدو من شكله «كسر صيني». إن لم أكن مخطئًا فإن مثل هذه الأسلحة نجدها في China Town، وهي المدن الصينية التي فتحها الصينيون في دول عديدة من العالم؛ تجنبًا للفقر الذي يسعى لالتهام أعداد غفيرة من الصينيِّين الحمقى في البيع، من هناك تشترى أشياء كثيرة، ورخيصة جدًا.

إن أول شخص اشترى شيئًا من هناك بسعر رخيص ودام معه فترة طويلة أكيد أنه ذكر أمام الآخرين أن السلع رخيصة في الأسواق الصينية، وهي ليست سيئة مثل ما يشاع عنها. إنها تدوم وتظل مؤدية الغرض من شرائها. من يقول إن منتجات الصين سيئة، ولا تدوم كثيرًا، قد لا يعلم أنه يعيد الخطابين الاقتصادي والسياسي لأمريكا.

بسلك خفيف تتبعه خرقة بالية ينظف أحمد بقايا أوساخ طلقات «الرمي» العالقة منذ آخر رحلة صيد خرج إليها لجبهة الشميسا صائدًا «العقاعق والصفارد والحمام البرّي». أما الآن فنحن أمام نوافذ يونيو الحارَّةِ.

ترك أحمد مفتاح حافلة المياه في مُشغِّل المحرِّك، إن

جاء دورها في غيابه فستحرّك من مكانها، ستملأ بالماء، بعدها تقدّم إلى الأمام؛ إلى أن يعود من رحلة صيده القريب.

هكذا يعامل الناس هنا بعضهم بعضًا، هذا ما أكّده سائق Riow الكورية، الشاب الذي حوّل سيارته الخاصة إلى سيارة أجرة؛ بعد أن استأجر رقم أجرة بعشرين ريالًا في الشهر، وكان ليلة البارحة ساهرًا في المقهى الذي يأتي بعد المنعطف المؤدي إلى قرى عديدة، يبدأ نبع مسار أهلها من بلدة أحمد، وهناك التقى أحمد، وتحدثا كثيرًا عن تعب الحصول على وظيفة تضمن راتبًا مع نهاية كل شهر.

يمشي بهدوء، يطارد الحمامة التي تتنقّل بحرِّية وحركة خفيفتين، تراوغ ظلها الذي لا تراه، تقتفي أثر الماء من مكان إلى آخر، ترفرف لطرد الموت من العطش، في المرّة الأولى انتكست طلقة الرصاص الخفيفة في الأرض، ما طارت الحمامة، ظلّت تراوح بحثها عن الماء، وعن حبات ذرة أو أرزٍّ، عساها سقطت هنا دون قصد من أحد، تتنقل بين ضواحي المزرعة التي يؤخذ منها الماء إلى البيوت على نفقة حكومة غير رشيدة في نهبِ ثروات شعب من نفط أراضيه.

يتضاءل أحمد بين ضواحي الذرة، لا أراه الآن، غاب عنِّي، لكنه غير بعيد، احتوته أعواد الذرة، سحبته ساقا الحمامة البرِّية، أغرته بحركاتها التي تحاول من

خلالها استفزازه، فينكفئ على ضآلته محاولًا بهذه الطلقة صيد الحمامة من خلال دفن عينيه في المنظار.

هناك تظهر علامة +، عليه أن يجعل مركزها في جسد الحمامة التي تنقر الأرض، كلما تحركت غابت نقطة الرؤية التي يصوب أحمد فيها عينيه، وتظهر صورة الحمامة كما لو أنها خلف نقطة مركز علامة الرؤية. هدوء بين أعواد الذرة، الهواء يلعب بالسنابل، الأغصان ثابتة في الأرض، لا تتحرك إلا من الأعلى. خرجت، راحت تقفز، فجأة تلقفتها الطلقة وفرح أحمد بما صاد.

أخذها، وراح منتشيًا بالفرح. أثبت لنفسه أنه مازال قادرًا على الصيد، وهو فرح بهذا، عيناه مازالتا قادرتين على التصويب، رغم الرجفة التي يشعر بها من كثر التدخين الذي يزاوله بشدَّة في هذه السنوات.

(20)

تحت شجرة أمام المسجد، والساعة الواحدة والأربعون دقيقة من ظهر أوَّلِ جمعة بعد الإعصار، جلس أحمد في انتظار الشخص الذي سيرافقه إلى مسقط، لم يخرج من بيتهم إلا بعد رسالة وصلته عبر هاتفه الجوال، وقد أخبرته الرسالة قائلة: «بعد خمس دقائق أمام سدرة المسجد».

خرج مباشرة بعد الرسالة، عساه يجد فرصة لتدخين ولو سيجارة واحدة، هذا ما كان في سريرته، وهو الآن حائر في أمرين، هل يخبر أمه بقرار عودته؟ أم عندما يصل يتصل بها من هناك ويشرح لها أسباب وظروف عودته إلى مسقط؟

رآها نائمة عندما فتح باب غرفتها بهدوء تام، كان يتمنى لو أنها شعرت بفتح الباب، على الأقل كان سيصدمها بقرار عودته، علمًا أنها فاتحت أخاها في أمر أمنية، تتمنى رؤيتها قبل وفاتها، وقالت له إنها تريد أن ترى ابنها متزوجًا بابنته كاذية، وقال أخوها يا سلمى بإذن الله لن

تموتي إلا وقد تم ما تتمنين، بعد عامين تنهي كاذية دراستها، وهي من الآن ليست إلا لأحمد، ومهرها هو رضاها باقترانها به، وأنا سأكون أسعد إنسان إن وافقت كأذية على الزواج بابنك، هو رجل ولن نجد أفضل منه..

أُخبر بأمر ما صار من حديث بين أمه وأخيها، وقال لها لا أظن يا أمي أن كاذية التي ستصير معلِّمة بعد أقل من سنتين ترضى أن أكون زوجها، أنا الذي لم أكمل الثانوية، وأنا الذي لم أجد وظيفة في الحكومة فأي امرأة تقبلني شريكًا لحياتها. وأنا الذي تعرضت لضرب مبرح في الخوير أثناء مشاركتي في أول وآخر مسيرة تطالب بالإفراج عن المعتقلين. لا عليك يا بني ما يريده الله سيحدث، أنت توكّل على الله، والله لن ينساك أبدًا يا أحمد. ونعم بالله يا أمي.

سدرة المسجد تحرِّك أغصان أوراقها، كلما تحركت الأغصان على الشجرة فعل ظل الشجرة على الأرض الحركة ذاتها. عينا أحمد تتابعان ما يحدثه الهواء الذي يحرِّك الأغصان على الأرض، على الشجرة الأصل، والصورة على الأرض. يتكئ على إحدى درجات الباب المحيط بساحة مسجد النساء، وهو يطفئ سيجارته ببطء فكَّر في الرجل الذي سيرافقه إن كان يدخن أم لا؟

خياله يركض خلف الأشياء، من بينها أمّه، وحافلة

الماء، وكاذية، ويأتيه التفكير في امرأة، وبيت، وسيارة جميلة، وأسمعه يكلِّم نفسه، أيش يريد الإنسان في هذه الدنيا غير حرمة، وبيت، وسيارة، ويعيش يأكل ويشرب، وينام، ويشتغل إلى أن يموت. يقرأ مستقبله في ضروريات الحياة، وأراه يشعل سيجارته، كدت وأنا مارٌّ عليه أن أطلب منه سيجارة، أعجبني وهو يرد على نفسه بما يحلم به، تذكَّر أستاذًا كان قد درَّسه اللغة العربية في الصف الأول الثانوي، سمعته يقول عذرًا يا أستاذ، الحياة لا تريد ما تتحدث عنه، أفضل حاجة أن أعيش بدون تفكير، وأقصى تفكير لي هو كاذية داخل بيت جميل، وسيارة جديدة.

رأيته يقفز كالمذعور من شيء لا يعرف له سببًا، راح يعدو سريعًا، دخل فناء مسجد الرجال، قطع ساحته، خرج من الباب المؤدي إلى المكان الذي أوقف فيه ناقلة المياه الصالحة للشرب، وصل إلى المكان الذي قصده، فتح الباب، أنزل السكتون من الناقلة، أخذه إلى البيت، دخل بيتهم من بابه الخلفي، ترك السكتون في مكان آمن، إلا أن قارورة الرصاص تركها في مكان آخر، سمع صوت سيارة تناديه، عاد إلى المكان الذي جلس فيه، وصل وما رأى أحدًا في المكان، مطّ عينيه في الشارع السائر إلى طريق تأخذ السيارات إلى مسقط، كانت ظهيرة الصيف وحدها واقفة في وسط الشارع، لا أحد غيرها في هذا الوقت، كل

هذا الملل والانتظار المخيف من عدم رؤية مسقط في يوم مبارك كالجمعة جعله يخرج علبة سجائر جديدة كان قد اشتراها من منطقة بعيدة عن بلده، لأن بائعي محال البلاد عمانيون، هؤلاء يرون أن بيع السجائر من المحرمات، وهم لا يتمنون أن تفسد تجارتهم بسبب بيعهم أشياء محرمة.

إن من يرغب من شباب هذه القرية في شراء سجائر عليه أن يخرج من بلده هذا ما لا يقلُّ عن خمسة عشر كيلو مترًا جهة الشمال أو الغرب، هناك حيث محطتان للوقود، فيهما محال صغيرة قد يجد المدخن سجائر فيهما.

في تلك الجلسة وكان أحمد في هذه الظهيرة مع سيجارته الثانية يقتل ملل الانتظار، إنه ينتظر أحدًا نسي اسمه، وهو يلاحظ أنه في هذه الأشهر بدأ ينسى كل شيء، أشياء كثيرة نسيها في أماكنها، وأشياء أخرى وعد بها الناس ونسي وعده لهم، هو هنا نسي خادمة المنزل التي تمنى أن يقيم معها علاقة، وفجأة نسي أن زبائنه في مسقط نسوا الاتصال به، وأظنه نسي المبالغ التي اقترضها مع زملاء له في مهنة بيع الغاز، أجزم أنه نسي محاسبة مالك سيارة الغاز عن عمل الأسبوع الأول من هذا الشهر، بل لم يؤكد له إن كان سيعود لبيع الغاز أم سيبحث عن وظيفة أخرى، وهو قبل قليل تذكر أنه كاد ينسى بندقية الصيد في ناقلة مياه اشتغل فيها يومين.

ارتاع أحمد من صوت رجل عجوز جاءه من فناء المسجد في الثانية وعشر دقائق ظهر هذا اليوم، وقال له: «ما شاء الله عليك جالس تغبر المسجد بدوختك». شعر أحمد بضآلته أمام الجملة التي قالها العجوز المتوكئ على عصاه، فأردف الرجل قائلًا له: «أنت أبدًا ما بتوب عن هذي العادة الحصة». إن شاء الله أبوي، وعد هذي آخر حبّة وها هي دفنتها تحت حذائي». «يا ولدي اللي يحبك ينصحك».

اتكأت عصا الرجل على جدار تنبع منه حنفيات ماء، ودخل بحمحمته إلى دورة المياه، ومن فتحة صغيرة جعلت للتهوية كان أحمد يسمع كلامًا يحدِّث به الرجل الجدران الأربعة لدورة مياه المسجد.

الآن وقفت سيارة صالون، سلّم أحمد على من وقف، ركب آخذًا معه كيسًا بلاستيكيًا فيه ملابسه، وأدوات أخرى لم أرها عندما وضع الكيس في خلفية السيارة، يمشيان، وقد أُخْبِرَ أحمد عن سبب تأخُّرِ الرجل الذي يتحدث معه في هذه اللحظة، قال له لا عليك، أعرف المتزوجين لا يخرجون إلا بعد إرضاء زوجاتهم. فرح أحمد عندما أخرج صاحب السيارة علبة سجائره، مدّها لأحمد، لكنه أفاد أن معه سجائر. الآن والهواء حار وجاف، وهذه فيما أظن أول سيجارة يشعلها أحمد على وقع أغنية وجهاز

تبريد مفتوح على الدرجة الثانية في سيارة جديدة كالتي سار فيها الآن مع أحد أفراد قريته إلى مسقط، ثمة راحة ومتعة في سفر كهذا، علمًا أن علبتي ماونتن ديو باردتان في السيارة، تنساب الحكايات خفيفة وممتعة، سخرية الواقع الرابض فوق العمانيين حديث اللذين أوقفتهما الشرطة عند منعطف جبليٍّ، وكانت الشرطة قد أوقفت سيارات كثيرة، ولا أحد يعلم سبب طلب الشرطة من الناس أن يقفوا، خمّن أحمد وصاحبه بعد رؤية رجال الشرطة موزعين على الشارع أن الموكب سيغادر أحد الحصون الشامخة. بين شرطي وآخر ما لا يقل عن نصف كيلو متر، علب ماء صغيرة زاد أفراد الشرطة في هذه الظهيرة الحارَّة. قال أحمد بعد تأكده من سبب غلق الشارع لصديقه: «لم أكن أنا الوحيد من ترك مسقط تغرق بالإعصار، ولا أخفي عليك أني شعرت بالجبن وأنا أخرج منها مساء الثلاثاء، وها هو الشارع يؤكد أني لست الخائف الوحيد من الموت في هذا البلد، كثر الجبناء فينا، ولهذا حل الإعصار علينا..».

سقطت عينا أحمد على أرقام ساعة السيارة، وقارن بين الوقت في ساعته، ووقت ساعة السيارة، أخذ أرقام الساعة، حركها من الرابعة إلى الخامسة، كذلك فعل بالدقائق، فقد حوّلها من الرابعة والعشرين، إلى الثالثة والثلاثين دقيقة. هما الآن يقتربان من مسقط، عيناهما أمام أوّل دمار خلفه الإعصار، ويشعر أحمد بالنكبة التي حلّت

بالمدينة، يحاول الاتصال بأحد زملائه؛ ويأتيه صوت أنثوي قائلًا له إن رصيده غير كاف لإجراء أي مكالمة هاتفية، ويفتح عينيه على اتساعهما، ويرى مياه الوادي وهي تزمجر غضبًا على الصمت الذي قابل به الناس أوكار الفساد.

ـ فكرت كثيرًا أن هذا الإعصار بسبب أحداث ألفين وخمسة؟

ـ كيف؟

ـ لأن الجماعة مظلومون، هي قضية مفبركة من جهاز الأمن، بالله عليك هل تصدق أن جماعة نوت قلب نظام الحكم بقوة السلاح يعفو عنهم صاحب الجلالة بعد صدور أحكام بالسجن المؤبد والإعدام، صدقني لولا حكمة صاحب الجلالة ولا كان البلد رايحة وطي، وهو أظنه كان يعرف أن الموضوع مسرحية من أعمال المخابرات، أظنهم أرادوا إيصال رسالة أننا ترانا ما نايمين، ما كل حياتنا كأس ويسكي وبيرة كما يقول عنا الشباب، نحن نشتغل ليل ونهار، ونؤكد أن المطاوعة يريدوا إرجاع الإمامة. كلها السالفة خرطي، لا قلب نظام، ولا دعم، ولا أي حادث سير، كلها تجاوز من اليمين. أطلق علي ضحكة على ربط الإعصار بقضية ألفين وخمسة، فقال أناس كثيرون يؤولون أن جونو ما هو إلا غضب الله، بس بصراحة أعجبت بآخر كلماتك «لا قلب ولا دعم، كلها تجاوز من اليمين. .» أيش جالسين إحنا نخطط حادث سير؟

ـ والله ذا الإعصار أخس عن أبشع حادث شفته في حياتي، شوف شوف هذي حالة بالله عليك، أول مرة أرى مسقط مظلمة، كأنها مقبرة، شوارعها ميتة.

ظل الرجلان يطرحان مسببات كثيرة عن سبب نقمة الإعصار، وهما يحللان بمستواهما المعرفي أسباب حدوث هذا الدمار الذي شوه وجه مسقط، يسيران في زحمة شديدة، وفي شارع مظلم، يتوقفان بين منطقة وأخرى، يخففان سير عجلات السيارة في معابر الأودية، كلما مرت السيارة تحت أحد الجسور أغمض أحمد عينيه، يدعو ربه أن يحفظه من سقوط الجسر الذي تسير تحته السيارة. نسمع حسرته على تشويه خلقة مسقط، إنها مظلمة، وأماكن كثيرة منها مقفرة، بعض جسورها تهدمت من كثر ما نخرت المياه قواعدها، الأعمدة الكهربائية التي جنب الشوارع حنت إضاءتها، معلنة استراحة غير محددة الأمد.

يحاول علي الوصول إلى الخوير، رغم أنه كان يأمل أن لو دخل إلى أماكن أخرى، فهو حامل معه معونة ومؤونة لبعض الأسر، لكنه الآن حائر من أين سيدخل الأمكنة التي ينخر تفكيره فيها؛ لرؤية من هم في ذاكرته. يُصِرُّ أحمد أن تكون الخوير أول نقطة يقفان فيها، ويزود رفيقه بفكرة أن يقف ويسمح لأحمد أن يسير على قدميه، وهو قد شعر أن السير على القدمين أسرع من السير بعجلات السيارة، ها هي مسقط تحوِّل السيارات سلاحف، وشوارعها بحار

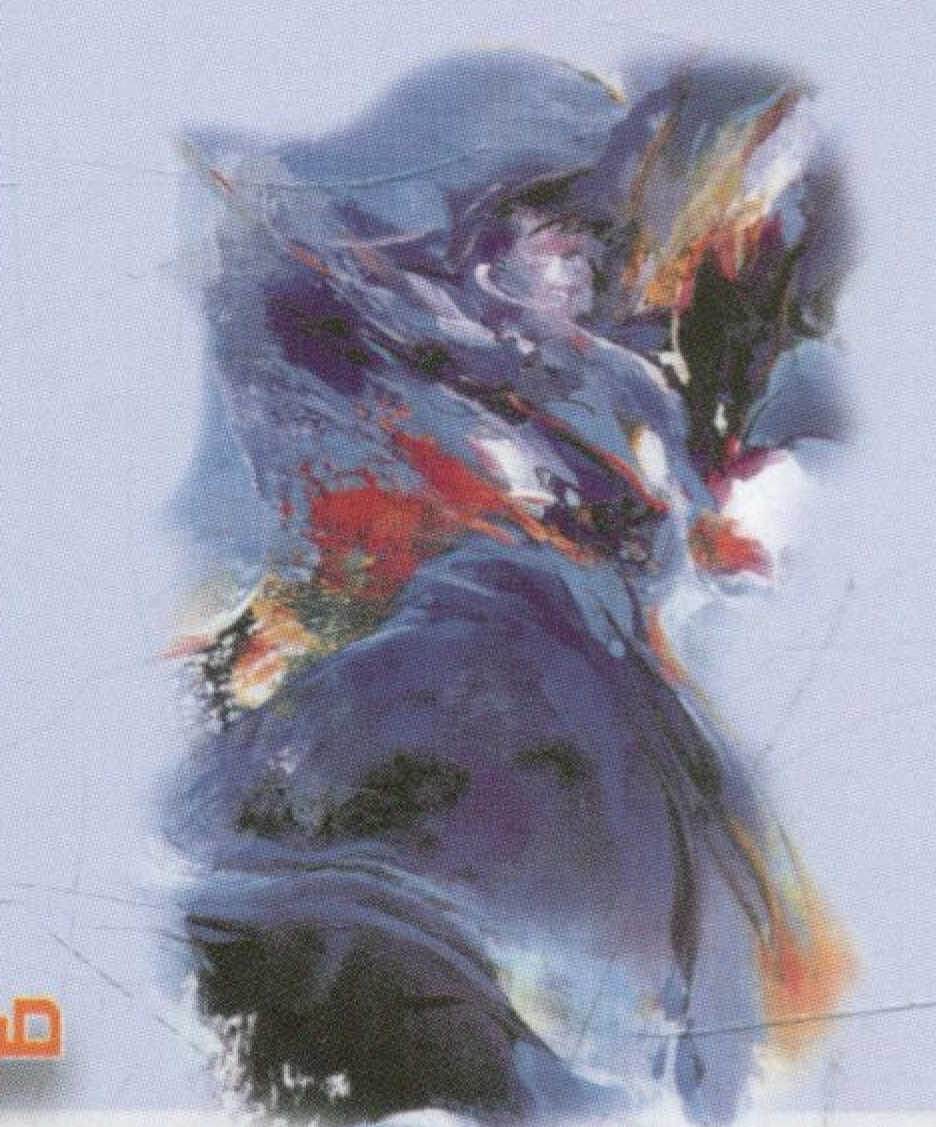
غبراء. عند جسر الغبرة نزل أحمد، قبل أن يغلق باب السيارة حدد جسر الخوير مكانًا للقاء رفيقه علي.

يسير ماشيًا، لا نراه في هذا الظلام، تأتي أضواء السيارات بقامته الطويلة، تنعكس قامته في الماء، من الخلف يتميز بمشيته عن الآخرين، يسير محركًا يديه، يرسم دخان سجائره دوائر زرقاء، يرفع دشداشته كلما قطعت سيارة معبر ماء متسخ، في اللحظات التي لا يدخن فيها يغلق أنفه من هول روائح الحيوانات التي نفقت جنب الشوارع وعلى مجاري المياه، الكلاب كانت أكثر الحيوانات التي ترحَّم أحمد عليها، في هذا الشارع القريب من مقهى ليالي زمان وقف يعد الكلاب الميتة، كلب بوليسي، كلب حراسة، كلب هولندي، وهذا من الهند، كلب شوارع، كلب..

شدته الإضاءات الحمراء لسيارات الشرطة في السماء السوداء، إنه غير بعيد من المكان الذي اشتغل فيه طوال سنوات وجوده في مسقط، سيارات الإسعاف كانت تمر عليه بأبواقها المزعجة. ركض قليلًا، أو لنقل هرول عندما رأى كتلًا بشرية غير بعيدة عن عينيه في هذه اللحظة، تأكد أن ذاك التجمع في منطقة وقوف سيارات الغاز، تخلص من حذائه بعد انقطاع أحد زوجيه، أطلق العنان لساقيه، ركض عندما وصل قرب حديقة الخوير، وصل لاهثًا كالكلب،

كان صدره يكح، بدأ يخترق الجموع البشرية المصدومة بالفاجعة، كانت الشرطة قد سيجت المكان الذي جعلته المياه معبرًا لطوفانها على الأرض.

سيارات كثيرة ساقطة في البرك العميقة التي حفرتها مياه الإعصار، بنايات طويلة سقطت على سيارات كثيرة، صرخة قوية مخلوطة بنشيج جنائزيٍّ يكسر بها أحمد صارخ صوت تهليل وتكبير يخرج من أفواه بشر يتابعون إخراج جثث سائقي سيارات الغاز.



صرخة واحدة لا تكفي

ما الذي سيقوله هذا العماني إذا ما منح فرصة للكلام؟



ISBN 978-614-404-540-4

